العالم الرباني
الشيخ إبراهيم الغلاييني
133 – 1377 هجرية
1882 – 1958 ميلادية

تقديم

فضيلة الشيخ: كريم راجح

شيخ قراء ديار الشام

فضيلة الشيخ عبدالله بن إبراهيم الغلاييني

مفتي قضاء قطنا بسوريةً سابقاً

فضيلة الشيخ المحدث: شعيب الأرناؤوط

تأليف

الدكتور/ محمد موفق بن عبدالله الغلاييني

نائب رئيس مجلس أمناء الجامعة الإسلامية بأمريكا الشمالية

وعضو مجمع فقهاء الشريعة بأمريكا واللجنة الفقهية التابعة له

الحمدلله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن ولاه.

وبعد

فلقد كان من دواعي سروري أن قرأت هذا الكتاب وأشرفت على تجارب طباعته حتى ظهر على هذه الصورة، وأذكر أنه عندما توفي الشيخ رحمه الله كنت طالباً في الثانوية الشرعية بدمشق و كانت معرفتي بالشيخ لا تتجاوز، مشاهدته عندما يزور بلدتنا – كنا كر – وسماع مواعظه في المسجد أو في بعض المجالس العامة و عندما سرنا في جنازته جالت في خاطري أبيات في رثائه وهي قصيدة طويلة ذهبت مع ما ذهب من العمر و المتاع ، وأُثبتُ – هنا ما بقي منها في ذاكرتي.

أمفتـــينا لقد جَـلّ المُصـــــابُ وذي الأرزاءُ جـاءت بالتـوالي
ومـوتُـك كـان في الإســلام ثَـلْمـاً فـمـن لـلـثَّـلْـم يـا جَـدَّ المعـالي
لئن غابت شُموسُك من سمانا وَعَـمّ الـكـونَ ديـجـورُ الـلـيـالي
فـــلم تـــــْبرح مـــآثركم تنوّرْ طـريـقَ الـسـالـكين مـن الـرجـال
وآثـرتَ المـعـــيشة في قـرانا على الأقـدام تسعى في الجبال
ولـو رمـت الحـــيـاة بـظل قصر لجـاءتـك الـقـصـور مـع الـعـلالي

وهنا ذهبت بعض الأبيات من الذاكرة، ولكنني ختمتها ببيت المتنبي الشهير:

وإن تـفُـقِ الأنـــام و أنـت منهم فـإن المسْـك بـعـضُ دَمِ الـغـزال

محمد يوسف الجاهوش
مدير تحرير مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية
في جامعة الكويت

الإهـداء

إلى طلاب العلم الشغوفين لمعرفة سيرة علمائهم الأوفياء للإسلام ورجالاته في زمن عز فيه الأوفياء.

إلى الباحثين عن العلماء الذين عاشوا هموم أمتهم مقدمين لها العلم مع التوجيه والنصح الأمين، صادعين بالحق، غير أبهين لرضى الحكام أو سخطهم.

أقدم أنموذجاً للعالم الرباني الذي لم يخش في الله لومة لائم.

علَّهم يقتبسون من سيرته ما يشد من عزيمتهم، ويذكي همتهم؛ لمتابعة مسيرتهم في الذود عن حياض هذا الدين الحنيف، باذلين النصح لأمتهم؛ كي يسلم دينهم من تحرف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين.

أقدم هذا الكتاب مردداً:

وخلِّ الهوينى للضعيف ولا تكن نؤوماً فإن الحُرّ ليس بنائم

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ...

شهادة للتاريخ:

«من ينسى أفذاذاً من المربين الذين سلكو بالناس طريق الخير، وحفظوا عليهم السلوك المستقيم الذي هو عصارات الحضارات، ومَكنوا لهم من الحفاظ على الجانب الأخلاقي من الأصالة العربية من مثل الشيخ: بدر الدين الحسني، والشيخ علي الدقر، والشيخ أبي الخير الميداني، والشيخ إبراهيم الغلاييني، والشيخ عطا الكسم».[1]

في الصورة الأولى يظهر الشيخ إبراهيم الغلاييني الثالث من اليسار، وإلى يمينه الشيخ أبو الخير الميداني (عالم دمشق المشهور، وهو أحد مشايخ الشيخ على الطنطاوي)، وإلى يساره الشيخ السيد مكي الكتاني (مغربي الأصل، وعضو رابطة علماء دمشق)، ثم الشيخ عبدالعزيز عيون السود، أمين الفتوى بمدينة بحمص.

ويبدو في الصورة الثانية الشيخ إبراهيم، الأول إلى اليسار، ثم ابنه الشيخ عبد الله في الوسط وإلى يساره المؤلف.

---

(١) من مقدمة الدكتور: (شكري فيصل) لكتاب (تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري:).

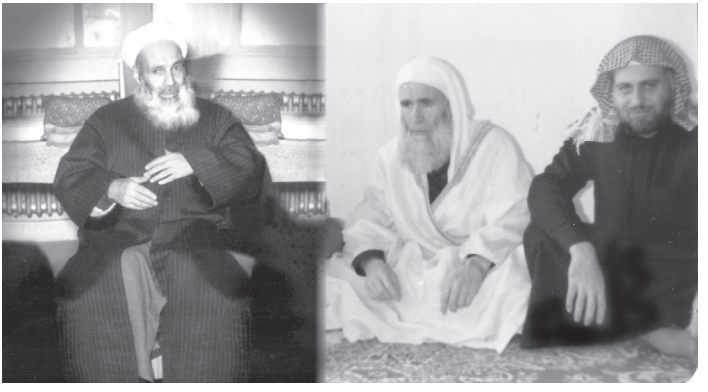

الشيخ إبراهيم الغلاييني، وإلى يساره ولده الشيخ عبد الله وحفيده المؤلف

الشيخ إبراهيم الغلاييني وإلى يساره الشيخ أبو الخير الميداني وإلى يمينه
الشيخ مكي الكتاني ثم الشيخ عبد العزيز عيون السود

مقدمة لفضيلة الشيخ كريم راجح

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله محمد وآله وصحبه ومن والاه

أما بعد:

فكم كان سروري بالغاً حين زرت الشيخ الفاضل موفق بن عبد الله بن الشيخ إبراهيم الغلاييني في أمريكا ودفع إلي كتاباً من تأليفه في جده الشيخ إبراهيم، فإن رجلاً مثل الشيخ إبراهيم كان يملأ أرجاء دمشق بل أرجاء سوريه علماً وصلاحاً وذكراً وتمسكاً بالسنة لا يدع ذلك في حضر ولا سفر، وكان موضع ثقة ممن يعرفه ولم يخالطه، لأن تواتر صلاحه وتقواه وولايته أصبح لا يحتاج معه إلى مخالطة.

ولقد أُسند إليه فتوى قطنا، وكان في قطنا مسيحيون كثر بالإضافة إلى المسلمين فكان لصدقه وحسن علاقته بالله موضع ثقة حتى من النصارى، فكانت كلمته محترمة عند الجميع، إذ كان مهيباً مبجلاً عند الجميع.

ورجلٌ مثل هذا في حسن علاقته بالله، وصدقه مع الناس حتى لو قلت: إنه يمثل الدين في أخلاقه وسلوكه لما كنت مبالغاً، فرجلٌ مثل هذا لا يجوز أن يموت في أذهان الناس إذا انتقل إلى الله. بل يجب أن يبقى في أذهان الناس؛ ليعرفوا كيف كانت سيرة الصالحين والربانيين. وأقسم أن شيخنا الشيخ: (حسن حبنكة الميداني) زرع في قلبنا حبَه واحترامه،

وحب الشيخ العلامة: (أبي الخير الميداني) منذ نعومة أظفارنا.

وباختصار أقول: (تلك أمة قد خلت) وأقول:

أولائك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا ياجرير المجامع

وكان من الأمور التي سرتني أن يكتب عنه واحد من نسله، وأن يعرض ماكتبه على أبيه لأن ذلك توثيق لكل مافي هذه الرسالة وأي توثيق.

وخلاصة القول: إن الشيخ إبراهيم كان أمة، وكان قدوة، وكان ربانياً.

إن الشيخ إبراهيم رحمه الله لايموت أبداً في قلب من يعرفه، فأرجو أن لايموت في قلب من يقرأ هذا الكتاب ومن يعلم عنه.

أسأل الله سبحانه أن يجزي الكاتب والمراجع والمقدم والمقرظ والقارئ خيراً، وأن يجمعنا تحت لواء سيدنا رسول الله «يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم».

شيخ قراء ديار الشام الشيخ: كريم راجح

كتبت في الولايات المتحدة الأمريكية بسبب زيارةٍ من أجل سوريه

بتاريخ: ٣/١٢/٢٠١٣ م

مقدمة ....

لفضيلة الشيخ عبدالله بن إبراهيم الغلاييني رحمه الله.

أحمد الله عز وجل على نعمة الإسلام والإيمان، وعلى نعمه كلها، ونشكرك ياربنا على كل حال، اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق، والخاتم لما سبق، ناصر الحق بالحق، والهادي إلى صراطك المستقيم، وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم.

وبعد .. فإن ولدي محمد موفق – وفقه الله تعالى وإخوته وأخواته لما يحب ويرضى – طلب مني أن أكتب مقدمة لما كتبه عن جده المرحوم سيدنا الشيخ إبراهيم بما ألهمه الله تعالى، جامعاً حياة هذا العالم الفاضل، والوارث المحمدي في وقته، وما فيها من فضائل ومكرمات هي أكبر حجة علينا وعلى علماء عصره وإخوانه وأحبائه؛ لما حوت من سيرة عطرة منورة، وسلوك جليل فاق سلوك أقرانه، وعلم صحيح سليم أخذه الشيخ من علماء أجلاء اشتهروا في زمانهم بالعلم الشرعي المستنبط من القرآن والسنة، كما اشتهروا بمجاهدة النفس الأمارة بالسوء؛ حتى وصلوا إلى مدارج السالكين إلى الله والعارفين به، وبذلك سموا على أقرانهم، وخلفوا وراءهم تلامذة يحتذى بهم، أبطالاً في العلم والعمل والجهاد في سبيل الله، فكان حالهم كحال الصحابة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، من حيث صدق طلبهم لرضا الله، ومحبتهم الخالصة لرسوله عليه الصلاة والسلام، فكان شعارهم في ذلك شعار أصحاب القلوب: (اللهم أنت مقصودي، ورضاك مطلوبي).

هذا من جهة علمه وإخلاصه في نشر هذا العلم حيثما حل وارتحل، فلا تراه إلا معلماً ومرشداً وواعظاً، آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر.

وأما تطبيقه للسنة النبوية الشريفة: فلا يدع سنة من سنن رسول الله قرأها أو سمعها من شيوخه أو بلغته عن عالم من العلماء الموثوقين إلا وعمل بها بقلبه وروحه وسلوكه، لا يفتر عن ذلك في ليل أو نهار، بل كان يحضّ أهله وضيوفه وتلاميذه على ذلك، مستذكراً قول النبي عليه الصلاة والسلام: (من أحيا سنة من سنتي قد أميتت بعدي، فإن له من الأجر مثل أجور من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيء).[1]

وقوله لأنس بن مالك رضي الله عنه: (يابني، إن ذلك من سنتي، فمن أحيا سنتي فقد أحبني، ومن أحبني كان معي في الجنة).[2]

كان الشيخ حريصاً على تطبيق السنة – أيضاً – إذا حلَّ ضيفاً على أحد أحبابه، وهذا ماجعل أناساً يتأسون به في ذلك، بل ويروون ماتعلموه منه فرحين مستبشرين، هذا ما حدا بالأستاذ الفاضل الشيخ: (أسامة الرفاعي) نجل المرحوم الشيخ: عبد الكريم الرفاعي رحمه الله تعالى إلى ذكر ما اقتبسه من الشيخ في المناسبات التي يخاطب فيها جمهور المسلمين قائلاً: (زارنا الشيخ إبراهيم في منزل والدي عندما كنت شاباً يافعاً، ونام عندنا فكنت أخدمه في الليل حينما يقوم للطهارة لصلاة قيام الليل، فكنت أراقب أفعاله وخشوعه وأدبه في الصلاة، فتعلمت منه

---

(١) هو جزء من حديث مرفوع رواه الترمذي وابن ماجه.

(٢) هو جزء من حديث طويل أخرجه الحافظ الطبراني في المعجم الوسط: ٦/ ٤٦٤ بتحقيق الشيخ محمود الطحان: الطبعة الأولى.

الشيء الكثير من السنن والآداب النبوية).

لأجل هذا قال عنه أقرانه من العلماء: (الشيخ إبراهيم: محيي السنة النبوية في عصره، أو كأن السنة النبوية بين كتفيه تمشي على الأرض)

ولازال المسلمون في سورية، وغيرها يذكرون هذا الشيخ بجلائل الأعمال وفضائل المكرمات والكرامات، فكل من جلس إليه يذكر شيئاً من ذلك، وهذا من فضل الله سبحانه وتعالى عليه، ولا زلت أذكر من ذلك أنه عندما كنت في أول ريعان شبابي وكنت أصلي وأفراد الأسرة خلفه فكان أحياناً يلتفت بعد الفراغ من الصلاة محذراً من ترك الوضوء ومرغباً في فضائل الطهارة، وكأن قلبه حدثه بوجود قصور في ذلك من بعض المصلين. رحم الله شيخنا وإمامنا وقدوتنا إلى رضاء الله تعالى ورضا رسوله عليه الصلاة والسلام، وجزاه الله عنا وعن المسلمين والمؤمنين كل خير وإحسان وفضل في البرزخ وعند حوض رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم المحشر، وعلى الصراط حتى دخوله الجنة إن شاء الله تعالى بفضله ورحمته، وجزى الله ولدي [محمد موفق] كاتب هذه الرسالة كل خير، فقد أمضى ردحاً من الزمن وهو يفكر في هذه المكرمة إلى جانب أوقاته الثمينة في الغربة أعانه الله ورعاه وجميع أخوته، وسامح الله كل من قصر في ترجمة الشيخ الفاضل وهو قادر على ذلك لكن هذا كله بمشيئة الله تعالى.

ولا أنسى في الختام أن أقول: بأن من عرف حقيقة الشيخ يعلم أنه لا تهمه مثل هذه الترجمة؛ لأنه قد يكون فيها شهرة، هو أحرص الناس على البعد عنها، فقد وقع في ذيل آخر رسالة أرسلها بالعبارة

التالية (من العبد الفقير إليه تعالى إبراهيم اللاشيء) مذكراً أحد طلابه ممن كان يدرس في الأزهر الشريف خوفاً عليه من حب الظهور، وهكذا كان تأديبه لنا دائماً. وهذا ما يذكرنا بقوله سبحانه وتعالى: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾، الصافات [٦١].

وأقول في الختام: جزى الله شيخنا ومربينا ومرشدنا كل خير، وجزى عنا علماءنا ومشايخنا وكل من تربينا على أيديهم خير الجزاء، وجمعنا وإياهم في مستقر رحمته، إنه سميع مجيب، والحمد لله رب العالمين.

لقد أكرمني الله بلقاء العالم المحدث الشيخ شعيب الأرناؤوط في صيف عام ٢٠٠١م في عمان وكنت بصحبة والدي، فطلبت منه موافاتي بشئ مما يعرفه من سيرة الشيخ فكتب لي هذه النبذة الطيبة أثبتها كما هي:

مقدمة فضيلة الشيخ المحدث شعيب الأرناؤوط:

(الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد ...فقد شاء الله سبحانه أن أصلي الجمعة في مسجد أم يحيى في عمان، وأن ألتقي حفيد الشيخ العلامة الزاهد إبراهيم الغلاييني الذي قام بإلقاء خطبة الجمعة، وقد جلست إليه بعد الخطبة وعرفني بنفسه، وكان قريباً منه والده الشيخ عبد الله وهو صاحبي قديماً، وكانت لي معه جولات موفقة في الشام أيام الشباب، وقد التقيت به في هذا المسجد بعد خمسين عاماً أو أقل، وقد غيره الشيب، ولم أتبينه إلا بعد أن قال: أنا ابن الشيخ إبراهيم الغلاييني، ففرحت كثيراً بهذا اللقاء الذي تم بيني وبينه، ثم تحدثت عن جملة أمور كانت عالقة في ذاكرتي تخص الشيخ إبراهيم رحمه الله، فطلب إلى الابن والحفيد أن أسجل ذلك في ورقة، لأن حفيده قد انتوى أن يكتب عن جده مايعرفه من أعمال المبرورة، وخصائله الفاضلة لكي يتأسى طلبة العلم به ويحتذوا حذوه.

كان الشيخ إبراهيم رحمه الله وأسكنه فسيح جناته مثل العالم الصادق الذي استبان له المنهج الرباني، وتوضحت له الطريق المثلى التي كان عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأبى على نفسه إلا أن

يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم قدوته في هذه الحياة في الاعتقاد والعبادة والأخلاق والمعاملات والدعوة إلى الله .

وكنت منذ خمسين عاماً أسمع بهذا الشيخ في كل أحياء دمشق ومساجدها وكانت ألسنة الثناء تلهج به، وتشيد بفضله، وتذكر سيرته العطرة التي كانت تتميز بالقدوة الحسنة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فكان رحمه الله يزور أحياء دمشق بين حين وآخر، ويقيم في كل حي يوماً وليلة، ويتقصف.[1] على مجلسه أهل العلم والعوام من الناس، ويستمعون إلى نصائحه وتوجيهاته، ويتكرر ذلك في أكثر من مجلس في اليوم الواحد ثم يبيت عند أحد مريديه وفي اليوم التالي ينصرف إلى حي آخر وهكذا.

وكان له تأثير عجيب في نفوس سامعيه مهما كانوا، ومن أي طبقة وجدوا، ولايزال يعلق بذاكرتي توجيهه الطيب الذي تحدث به في جامع مازي بدمشق، وقد أقامو فيه احتفالاً بالمولد النبوي الشريف، وكان في هذا الحفل خطباء تعرضوا في خطبهم لسيرة النبي صلى الله عليه وسلم، وفي ختام الحفل ألح كثير من أهل العلم على الشيخ إبراهيم أن يقول كلمة توجيهية بمناسبة هذا الحفل، فقال رحمه الله مامعناه:- **(إن الله طلب من عباده المؤمنين أن يفردوه بالعبادة ويخصوه بكل الأشياء التي يتقربون بها إليه، وأن يستعينوا به في كل شؤون حياتهم، حتى يهبهم المعونة والقدرة على تحقيق كل ماتصبوا إليه نفوسهم**

(١) أي يزدحم، قال الرازي صاحب مختار الصحاح : (وقصفة اليوم: تدافعهم وازدحامهم) ص٥٣٨ طبعة ١٩٨١ دار الكتاب العربي – بيروت.

من خير) وكان ينزع في الاستدلال على مقالته هذه إلى قول المولى تبارك وتعالى (إياك نعبد وإياك نستعين) ثم قال: إن المسلم إذا تحقق في العبودية وطلب من الله العون فإنه يكفيه كل شئ، ونزع في الاستدلال على قوله تعالى: (أليس الله بكافٍ عبده) ثم قال جملته المشهورة التي لازلت احفظها :فكونوا عبيداً لله يكن الله لكم رباً.

وكان رحمه الله يصدع بالحق، ولا يخاف في الله لومة لائم، وكان له دور كبير في العمل الجماعي، فقد كان من أعضاء رابطة العلماء البارزين، يفزع إليه في كل مشكلة، ويؤمه الناس وأهل العلم من كل حدب وصوب فيقوم بواجبه كرجل مسؤول وصاحب مرجعية كبيرة، أذكر بهذه المناسبة أننا كنا ندّرس في مدارس دمشق مادة التربية الإسلامية، وقد نشأ إشكال مابين الوزارة والمدرسين، فذهب عدد من جماعة المدرسين – وكنت أنا من بينهم – إلى دارة العامرة في قطنا – أو وادي العجم كما كانت تسمى – ليكون لنا عوناً في إقناع المسؤولين في مطالبنا العادلة التي تتعلق بالإسلام، وأنها حق يجب ألا يفرط فيه.[1]

وفي مجمع سيارات قطنا كان هناك بائع ساندويتشات، وكلنا قد خرج من المدرسة وهو جائع فاشترى بعضنا ساندويتشات فأكلها، وأما البقية فقالوا: إننا سنذهب إلى شيخ كريم ولابد أن يصنع لنا طعاماً، وتوجهنا إلى قطنا ودخلنا بيت الشيخ وسلمنا عليه، وكانت هيئته تملأ السمع والبصر، وأخبرناه عن المشكلة التي قدمنا من أجلها، فوعد خيراً،

(١) كانت الوزارة آنذاك تفكر في تخفيض عدد ساعات تدريس مادة التربية الإسلامية، وهذا يلحق الضرر بناشئة المسلمين.

وكان وعده صادقاً لأنه كان يهتم بأمر المسلمين، ويتحمس لشريعة الله رب العالمين، ولايتهاون أبداً في حق من حقوق الله، ثم إنه بعد ذلك قال لنا كلمة تنبئ عن شفافية روحه وصدق بصيرته، قال لنا كلمة تنبئ عن أن الله سبحانه وتعالى قد عرفه ماكنا تحدثنا به في المجمع بشأن الطعام، فقال: لايبغي لطالب العلم أن يأكل في الطريق، ولابد أن يجد طعاماً عند صاحبه الذي يزوره، وقال لولده: قم فأت بالطعام، فأكل من لم يأكل ومن أكل.

في سنة ١٩٤٨م وكنت شاباً في مقتبل العمر، وكنت طالباً عند الشيخ صالح فرفور رحمه الله وقد عزم على أن يدعو أهل العلم إلى غداء في بستان الترك في دمر– من ضواحي دمشق– وكان عددهم يقدر بما يزيد على مائتي عالم من جميع مدن سورية، وكان لقاء عظيماً مباركاً تحدث فيه جملة من الخطباء وكان الشيخ حسن الخطيب – وهو من علماء فلسطين – رحمه الله قد ارتجل أبياتاً لاتزال عالقة في ذهني وهي:

لست في قول اخي بالمفتري حفلة ضاءت بأبهى الأقمر

علما جلق أربـــاب النـــهى شـــرفوها حفلة في تـــدمر

صالح فرفورنا الداعي لها دام بالخير الجزيل الأوفر

غارة الله أغيثي وانصـــري دين مولانا الرسول الأطهر

وأعيديها فلسطينـــا لنـــا واخذلي الأعداء عنا واقهري

ثم بعد تناول الغداء وصلاة العصر، وقد أمّهم الشيخ تحلقوا حوله، وبدأ هو في نصحهم، وفي ظني أنه كان يشعرهم بأن الله سبحانه

وتعالى قد وفقه إلى نصح العلماء الذين ينصحون الأمة، وكانت كلمة مؤثرة ذرفت لها العيون، ووجلت منها القلوب، وكان جلّها يصدر عن مشكاة النبوة، والشيخ رحمه الله كان يرجع إلى القرآن والسنة، ويأخذ منهما مايخص موضوعه الذي يتحدث فيه، ويقتصر في الغالب على التوجيهات الربانية والتوجيهات النبوية، وكانت الأحاديث التي يتحدث بها –وغالبها من رياض الصالحين– يجد لها طالب العلم موقعاً في نفسه، لأنه رحمه الله كان يدل على الخير بلسان حاله قبل لسان مقاله، فكان نعم القدوة ونعم الأسوة رحمه الله .

ولست أذكر أن أحداً كان يكره الشيخ، وهذا شئ عجيب أن تلتقي القلوب على محبته والانتفاع بتوجيهاته .

وكان الشيخ رحمه الله قد بلغ مرتبة الإحسان التي جاءت في الحديث النبوي: (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فإنه يراك) فإنه كان ينهج منهج العلماء والفقهاء ،ويعتبر أن كل عمل يصدر عنه لابد أن يكون له مستند من كتاب الله تعالى أو السنة النبوية، وكان رحمه الله ينبه على المخالفات الشرعية التي تقع من بعض المتصوفة والناس، ويردهم في ذلك إلى هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم .[1]

---

(١) من الأمثلة المشهورة على هذا أن الشيخ رحمه الله حضر لقاء في أحد مساجد دمشق ضم لفيفاً من العلماء الأفاضل فقام في نهايته بعض المتصوفة بعقد حلقة ذكر، علت أصواتهم، فغضب الشيخ ونهض إليهم قائلاً: (راعوا أصحاب القلوب) وكان شيخهم حاضراً فأمرهم بالجلوس تأدباً واستجابة لمطلب الشيخ إبراهيم فجلسوا، وقد سبق أن ذكرت أن حلقة الذكر عند الشيخ كان يلفها الهدوء والخشوع، ولم يكن فيها شئ من هذا الوقوف والتمايل ورفع الصوت، وكان كثيراً مايقول :(نحن نلجم التصوف بلجام الشريعة).

وكان في جلساته مع أهل العلم في البحث عما يخص شؤون المسلمين في بلاد الشام يستمع أكثر مما يتكلم، وكان يختم المجلس بكلمة الفصل التي يتقبلها الجميع، ويأخذونها عنه بعين الرضا والتسليم .

وكانت له رحمه الله عناية خاصة بعوام الناس، فيعلمهم في مساجدهم وفي بيوتهم وفي الطريق أحكام الإسلام الأوليه التي يطالب بها كل مسلم، وكان يبدأ معهم بصغار المسائل قبل كبارها، وكان يتحدث معهم باللغة التي يفهمونها، وكان لكلامه تأثير عظيم لاأظن أن أحداً بلغ مبلغه من أهل العلم في ذلك، وربما تنطبق عليه الآية الكريمة: (ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون) وربما تأثر بشيخه الشيخ سليم المسوتي الألباني الأصل، فقد أخبرني أنه كان يدّرس الطلاب– وهو منهم – كتاب نور الإيضاح في الفقه الحنفي ولايزيد على ذلك، ويقول لطلابه: اعملوا بما في هذا الكتاب فإنه يكفيكم .وبالجملة فقد كان رحمه الله على منهج السلف الصالح الذين يقولون الكلام الذي يسهل حفظه وينطوي على معان كثيرة .

رحمه الله رحمة واسعة، ونفع المسلمين بآثاره الطيبة، وكم كنت سعيداً عندما استمعت إلى خطبة حفيده يوم الجمعة، فقد كانت تنبئ عن علم جم، وآراء سديدة موفقة مشيدة بالكتاب والسنة، فرأيت فيه بعدما كلمته وخاطبته تواضع جده وحسن سمته، فحمدت الله على أن كان خير خلف لخير سلف.

مقدمة المؤلف:

الحمد لله تعالى القائل: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ (١)

والصلاة والسلام على الرحمة المهداة سيدنا ونبينا محمد، القائل – فيما رواه أبو الدرداء رضي الله عنه:– (وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر).(٢)

وبعد: فإن الدارس للتاريخ يلحظ أن الأمم الحية تنبت – وباستمرار – رواداً يأخذون بيدها في أيام الشدة، ويرشدونها في أيام الرخاء، ويبينون لها طرق الحق آمرين بالمعروف، ناهين عن المنكر. والأمة المسلمة لها قصب السبق في هذا المجال، فقد أكرمها الله بعلماء أجلاء منذ انبلج نور الإسلام، فكانوا نجوما زاهرة يهتدي بهم المسلمون، ويغترفون من معينهم، وهذا فضل الله يعطيه من يشاء. ولعل هذا ما أشار إليه نبينا عليه الصلاة والسلام فيما رواه معاوية رضي الله عنه، قال: سَمِعْتُ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «لا يَزَالُ مِنْ أُمَّتي أُمَّةٌ قائِمَةٌ بأَمْرِ اللَّهِ، لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلا مَنْ خَالفَهُمْ، حَتَّى يأتِيَهمْ أمْرُ اللهِ وهُمْ عَلى ذلِكَ». قالَ عُمَيرٌ: فقالَ مَالِكُ بنُ يُخَامِرَ:

---

(١) سورة المجادلة: ١١.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه ٣/ ٣١٧، وابن ماجه في سننه ١/ ٨١، والترمذي في سنن ٥/ ٤٩ وإسناده حسن.

قَالَ مُعَاذٌ: وهُمْ بالشَّام. فقالَ مُعَاوِيةٌ: هَذا مَالِكٌ يَزْعُمُ أَنَّهُ سَمِعَ مُعَاذاً يَقُولُ: وَهُمْ بالشَّامِ.[1]

إن الأمة الإسلامية - مهما ضعفت - تظل من الأمم الحية؛ لأنها صاحبة رسالة سامية خالدة. فالله سبحانه قد اجتباها لحمل رسالته فقال عز من قائل: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾.[2]

وإذا كان الله سبحانه قد أكرم هذه الأمة ببعثة نبينا محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، فكان النبي والقائد والرائد، فليس معنى هذا أن تموت الأمة بوفاته، وإنما يتابع المسيرة بعده ورثة الأنبياء. وهم العلماء العاملون كما رأينا في الحديث الآنف الذكر. لهذا نبهنا الله سبحانه لهذا فقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾.[3] لقد شهد القرن العشرين - قرن الصراع مع الاستعمار وأذياله - علماء أجلاءً من أنحاء العالم العربي والإسلامي وقفوا في وجه المستعمر، وفي وجه الإلحاد والشكوك التي بُثت ضد هذا الدين، متسلحين بإيمانهم وثقتهم المطلقة بالله سبحانه. فالتفت حولهم الجماهير المسلمة، وخاضت معارك الفكر مصحوبة بمعارك التحرير، فحمت معالم الدين من أن تزول، وأخرجت

(١) البخاري (٣٦٤١) ومسلم (١٠٣٧).
(٢) سورة آل عمران: ١١٠.
(٣) سورة آل عمران: ١٤٤.

المستعمر الغاصب – محررة أوطانها من دنسه – مدحورا والحمد لله.

من منا لا يذكر (محمد علي السنوسي) في المغرب العربي الذي تحركت مشاعره الإيمانية الفياضة بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر عام ١٨٣٠ م فتحرك في طول البلاد العربية وعرضها باحثاً ومتدبراً حتى أنشأ حركته المنسوبة إليه والتي دعت إلى تحرير العقل من الخرافة، والروح من الخنوع والتواكل، والأرض من أيدي المستعمر. وكل هذا باسم الإسلام وتحت رايته. وما البطل عمر المختار إلا ثمرة من ثماره.

وكذلك كان الحال بالنسبة لجماعة علماء المسلمين في الجزائر بقيادة الشيخ عبد الحميد بن باديس التي نظمت وقادت حركة الجهاد في الجزائر ضد المستعمر الفرنسي. وكذا الأمر بالنسبة لدور الأزهر وعلمائه في التصدي للمستعمر البريطاني في مصر، وعلماء سورية في التصدي للمستعمر الفرنسي، وكذا الحال بالنسبة للحركة الإصلاحية لعبد الرحمن الكواكبي في سورية وغيرهم كثير.[١]

إن الإصلاح الجاد الناجح لا يمكن أن يقتصر على الجانب

---

(١) صحيح أن الكواكبي لم يكن عالم دين، ولكن دعوته كانت تنطلق أساساً من فهمه الواعي لحقائق الإسلام. فقد انطلق في حركته الإصلاحية من مفاهيم إسلامية محضة، اكتسبها من احتكاكه برواد حركة الإصلاح في مصر عندما كان فيها، فهو يرجع أسباب فتور المسلمين – وهو المصطلح الذي اختاره بديلاً عن تأخر المسلمين – إلى: تأصيل الجهل، وفقدان الرابطة الدينية، وفقدان الحرية والشورى، وعدم اشتراك أهل الحلِّ والعقد في أمور الحكم. وللمزيد أنظر كتاب اليقظة الإسلامية في مواجهة الإستعمار لأنور الجندي ص: ١٧٢ وليس بغائب عن القراء تأثير الحركة الإسلامية، ومن أعلامها: محمد رشيد رضا، وحسن البنا، ومحب الدين الخطيب، والبشير الإبراهيمي، وسواهم.

السياسي، بل لابد أن يكون شاملاً للجوانب الأخرى العقدية والروحية والاجتماعية والاقتصادية أيضاً، وإنَّ أعظم ما يمثل هذه الشمولية هو الإسلام ذاته بشرط أن نأخذه ونتبنَّاه جملة لا تفاريق مبتوتة عن أصلها.

ليس من هدفي – هنا – أن أؤرخ للحركة الإصلاحية في عصرنا الحاضر، ولكني أعطيت نماذج قليلة لأبرهن على أنّ هذه الأمة أمة معطاءة، فهي لا زالت بخير بفضل الله أولاً ثم بفضل ما تنجبه من علماء صادقين.

فإذا أكرم الله هذه الأمة بعلماء واعين يأخذون هذه الجوانب جميعها بعين الاعتبار ويتعاونون فيما بينهم للنهوض بالأمة، وأيم الله لقد اقتربت بداية النهضة الجادة المرتقبة:

الفجر يومض مشرقاً بشريعة المستقبل

بشريعة الإسلام مناهج الحياة الأفضل

ولعل في إلقاء الضوء على علماء كانت لهم إسهامات في هذه الجوانب في تاريخنا المعاصر ما يبث في أجيالنا روح الأمل، ويحضها على البذل والعطاء، ويعطيها نماذجً يحتذى بها في عالم الإصلاح والنهوض والعطاء.

من أجل هذا أكتب اليوم عن سيرة عالم رباني عامل، أمضى حياته معلماً وناصحاً ومربياً، وما هو إلا أنموذج طيب أخرجته أمتنا كما أخرجت الكثيرين، وستخرج في المستقبل بتوفيق من الله وعونه المزيد

والمزيد، وهذا كله لم يكن ليرى النور لولا نعمة الإسلام التي حبانا الله إياها. وصدق الله إذ يقول (وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون).[1]

وإنني مازلت أسمع بالسيرة العطرة لجدي الشيخ إبراهيم من أقاربي، ومن العلماء ومن معارفه على مختلف مستوياتهم منذ نعومة أظفاري. ولا زالت بعض الصور المشرقة عالقة في مخيلتي عندما أكرمني الله بخدمته في منزله في فترة الصيف وأنا في التاسعة من عمري، وكنت أترقب أن يقوم أحد محبيه أو تلاميذه بكتابة شيء من هذه السيرة الكريمة لتكون مثالاً يحتذى وحافزاً لطلبة العلم؛ ليضعوا أنفسهم بالموضع اللائق بهم، وينهضوا بحق هذا الدين الحنيف كما فعل من سبقهم من العلماء.

ولكن بعد أن طال انتظاري، وانتقل أولاد الشيخ ومعظم تلامذته ومعارفه إلى جوار ربهم رحمهم الله جميعاً رحمة واسعة، فلم أجد بداً من التشمير عن ساعد الجد – رغم بضاعتي المزجاة – لأكتب عن سيرته؛ حفاظا عليها من النسيان ولعلَّ الله سبحانه ينفع بهذه الترجمة من يقرؤها، فربَّ مبلغ أوعى من سامع.[2]

لقد كان أملي وأمل والدي الكريم أن نعثر على فتاوي مكتوبة له

---

(١) سورة الزخرف: ٤٤.

(٢) نعم قام بعض المؤلفين الذين ترجموا لعلماء دمشق في القرن المنصرم بالترجمة للشيخ – جزاهم الله خيراً – ولكنها جاءت مختصرة ولا تفي بحقه علينا، وجلَّها لم يظهر الجوانب المتعددة لشخصيته، بل ذكر ماهو شائع عنه بدون تعمق، كما هو الشأن في كتب التراجم. كما قام تلميذه النجيب الدكتور محمد أديب صالح بالكتابة عنه باختصار في كتابه: هكذا يعلم الربانيون وأنا بصدد طباعة هذا الكتاب.

لأقوم بتحقيقها علمياً، لكننا لم نعثر على شيء من ذلك سوى بعض الفتاوي المتعلقة بالإرث (توزيع التركة)، وهذه لا تفيد إلا المتخصصين في هذا الفن صعب المنال.

بدأت بجمع مادة هذا الكتيب منذ عشرين سنة بتشجيع من والدي الكريم رحمه الله، وكانت الدراسة وظروف الغربة تحول دون إنجازه، ولكني عقدت العزم مؤخراً على إتمامه وفاء بحق هذا العالم الجليل، واستنهاضاً لهممنا؛ كي نحذو حذو الشيخ رحمه الله في سلوكنا.

وقد اعتمدت بصورة أساسية في إعداده على ما وافاني به والدي الكريم رحمه الله، وعلى ما كتبه عمي الشيخ سعد الدين رحمه الله لي خاصة بعد إلحاحي عليه بذلك، حيث كتب خمس عشرة صفحة عن سيرة والده بخط يده، كما عرضت بعضاً مما كتبت على عمي الكبير الشيخ محمد بدر الدين رحمه الله عند زيارته لي في الرياض، كما أفدت كثيراً مما كان يحدثني به أستاذي – تلميذ الشيخ النجيب – الدكتور محمد أديب صالح عن الشيخ الراحل.

وقد أفدت – أيضاً – مما كتبه المؤلفون والمترجمون عن الشيخ، فجزى الله الجميع عنا خير جزاء.

إن الذي يلفت نظر الدارس لسيرة الشيخ وجود إجماع من قبل جميع من عرفوه واختلطوا به على التأثير الكبير الذي تركه الشيخ في كل من تعلم منه أو استمع إليه، فما هو السر الكامن وراء هذا ياترى؟. سوف أترك الجواب للنهاية بعد أن يقوم القارئ بالإطلاع على سيرة الشيخ. ولكن أسارع إلى القول بأن الشيخ لم يكن يعظ ويعلم بلسانه

فحسب، بل كان يفعل هذا بحاله، فحاله كان أبلغ من مقاله.

وأمر آخر لفت نظري وأنا أدرس سيرته، وهو: اجتماع خصلتين قد تبدوان في نظر الكثيرين متناقضتين، وقد اجتمعا معاً في شخصيته وهما: النزعة الصوفية التي تعني بتزكية النفس والإقلال من العلائق؛ لأنها تشغل عن الخالق، مع الاهتمام بأمور المسلمين الخاصة والعامة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كل مناسبة، وفي أي فرصة تتاح. ومن قيض له رؤية صوره الفوتوغرافية يرى أن معظمها أخذت له وهو يشارك في أمرعام يهم المسلمين.[1]

والحقيقة أنه لا تناقض بينهما؛ لأن من يزكي نفسه ويصل قلبه بالله سبحانه وتعالى لا يخشى في الله لومة لائم، فتراه يدور مع الحق أنَّى دار غير هيّاب ولا وجل، بل إنني أعتقد أن من المصائب التي حلّت بالمسلمين في العصور المتأخرة: فصل هذين الأمرين عن بعضهما، فغدا الذين يعنون بتزكية النفس – في الغالب – بعيدين عن قضايا الأمة وآلامها. وأصبحت الغالبية ممن تُعنى بقضايا الأمة لا تعني كثيراً بأمر التزكية، وربط القلوب بعلاَّم الغيوب.

لقد قضيت مع هذا الكتاب أياماً طيبة مباركة شملتني خلالها روحانية الشيخ وكريم سيرته، وقد لازمتني أيضاً حسرة شديدة من جرَّاء المقارنة التي كنت أعقدها في مخيلتي بين حال أولئك الصفوة من

(١) أنظر على سبيل المثال الصور المنشورة في كتاب: القضاء الرباني بوفاة الشيخ أبو الخير الميداني. للشيخ: محمود الرنكوسي رحمهما الله.

العلماء وحالنا في هذه الأيام! ولعل مما يخفف من هذه الحسرة: أنَّ هذه سنة الله في خلقه. فالرواد قليلون كما أخبر الصادق المصدوق: (إنما الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة).

إنَّ من أهداف هذا الكتيب استنهاض الهمم، همم إخواني أهل العلم؛ كي يحذوا حذو هذا الرعيل الذي لا يفصلنا عنه ردح من الزمن بعيد؛ بل قريب قريب. ورحم الله القاضي أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني الذي لخص أخلاق العالم المعتز برسالته فقال:

ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي	لأخدم من لاقيت لكن لأخدما
أأشقى به غرساً وأجنيه ذلةً	إذا فاتباع الجهل قد كان أحزما
ولو أنَّ أهل العلم صانوه صانهم	ولو عظَّموه في النفوس لعُظما
ولكن أهانوه فهانوا ودنسوا	محياه بالأطماع حتى تجهما
وما كل برق لاح لي يستفزني	ولا كل من لاقيت أرضاه منعما

أما خطتي في هذا الكتيب فكانت أن تناولت الموضوع من جوانبه المختلفة فجاء في تسعة مباحث وملحق وفق مايلي:

١ – البيئة السياسية والفكرية التي نشأ فيها.

٢ – السيرة الذاتية.

٣ – أسانيد الشيخ في الحديث.

٤ – الصفات التي تحلى بها.

٥ – أساليب التعليم والتوجيه والفتوى عند الشيخ.

٦ – نماذج من كتاباته.

٧ – تلاميذه.

٨ – قطوف من أقوال بعض عارفيه.

٩ – وفاته.

– ملحق عن مؤتمر العلماء الأول المنعقد بدمشق عام ١٩٣٨ م

هذا ما أعانني الله عليه، وأرجو ممن لديه إضافة – وبخاصة ممن عرف الشيخ عن قرب – أن يوافيني بها مشكوراً على عنواني البريدي.

أسأله سبحانه أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفعنا من سيرة هذا العالم العامل لننسج على منوالها، وأن يجمعنا به تحت لواء سيدنا وهادينا محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم

يوم يقوم الناس لرب العالمين، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه، وآخر دعوانا أن الحمدلله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المبحث الأول

البيئة السياسية والفكرية التي نشأ فيها صاحب الترجمة

أما البيئة السياسية فقد شهد النصف الأول من القرن العشرين – وكان عمر الشيخ سبع عشرة عاماً في بداية ذلك القرن – أحداثاً جساماً كان لها الأثر الفعَّال على ما شهدته سورية والمنطقة العربية على وجه الخصوص من تغيرات فكرية وإجتماعية وسياسية.

فقد قام: (بلفور) وزير خارجية بريطانيا آنذاك بإعطاء وعد لليهود لإقامة دولة لهم في فلسطين عام ١٩١٧ م، وقبل هذا كانت بريطانيا تبذل الوعود المعسولة للشريف حسين بإقامة مملكة عربية برئاسته، ولكنها كانت تحيك في الخفاء مؤامرة دنيئة مع فرنسا لتقسيم الأقطار العربية فيما عرف باتفاقية سايكس – بيكو وذلك عام ١٩١٦م.

وبناء على هذه الاتفاقية احتلت فرنسا سورية عام ١٩٢٠ ولم تخرج منها حتى عام ١٩٤٦م وتم إلغاء الخلافة العثمانية رسمياً على يد مصطفى كمال أتاتورك عام ١٩٢٤م، وبهذا تمهد الطريق أمام بريطانيا لتنفيذ وعد وزير خارجيتها بلفور.

وبحلول عام ١٩٤٨م حصلت النكبة الكبرى باغتصاب فلسطين من قبل العصابات الصهيونية، وبتمهيد ومباركة ودعم دولة الانتداب

بريطانيا.

لقد كانت هذه أحداثاً جساماً ألقت بكاهلها على المسلمين عموماً وبخاصة أهل العلم والفكر والمعاصرين لتلك الفترة، إذ لم يقتصر أثرها على التغيرات السياسية فحسب بل كان الخطر الأنكى هو التأثير الفكري الذي رافقها ونتج عنها، والذي كان بمثابة اختبار حقيقي لعقيدة الأمة وثوابتها الفكرية.

أما بالنسبة للبيئة الفكرية فقد كان العلماء في الفترة التي عاش فيها الشيخ يقارعون على جبهتين رئيستين. الأولى: الوقوف في وجه التيارات الإلحادية والعلمانية، وقد جاءت نتيجة الغزو الفكري المنظم الذي دبره أعداء الأمة المسلمة منذ انتهاء الحروب الصليبية التي فشلت في مد سيطرتها على العالم الإسلامي، ومن ثم عززت بقيام الثورة البلشفية في روسيا عام ١٩١٧م. والتي أسهمت في بلبلة المعتقدات الدينية إلى حد كبير.

والجبهة الثانية: تمثلت في الوقوف في وجه المستعمر الفرنسي الذي احتل سورية بعد انهيار الخلافة العثمانية؛ زاعماً أنه إنما جاء لنشر المدنية الحديثة وإعمار البلاد.

لقد كان العلماء روح الأمة الصامد أمام هذه التيارات والتحديات، فدمشق كانت عاصمة الدولة الأموية المسلمة في فجر الإسلام، ومنها انطلقت جيوش الفتح الإسلامي حتى وصلت في عصرها إلى الصين شرقاً وإلى حدود فرنسا غرباً، ولذا فلم يكن من المصادفات أن تبدأ جميع المظاهرات ضد المستعمر الفرنسي من الجامع الأموي تتقدمها

ثلة من العلماء، كما لم يكن عجباً أن يسجل التاريخ أن الشرارة الأولى التي انطلقت منها الثورة السورية الكبرى عام ١٩٢٥م كانت على يد المحدَّث الأكبر الشيخ: (بدر الدين الحسني) وصحبة من علماء دمشق الأجلّاء من أمثال الشيخ علي الدقر والشيخ هاشم الخطيب رحمهم الله، فقد بدأت الثورة مباشرة بعد عودتهم من جولة في المدن السورية الكبرى، حيث بيّنوا أحكام الجهاد في الإسلام، ودعوا المواطنين للثورة ضد المستعمر الفرنسي المحتل.[١]

لقد اتّبع الشيخ إبراهيم الغلاييني نهج شيخه الشيخ بدر الدين الحسني كما سوف نرى، فقارع على الجبهتين معا: الوقوف في وجه الإلحاد والانحلال من قيم الإسلام وأحكامه، ومجابهة الاستعمار ومكائده، وكتب له التوفيق في كلتيهما والحمدلله.

لقد عثرت على وثيقة تاريخية هامة تثبت اهتمام العلماء في تلك الفترة بقضايا أمتهم وهمومها، وهي البيان الصادر عن مؤتمر العلماء الأول المنعقد في دمشق عام ١٩٣٧م. وقد شارك الشيخ إبراهيم فيه ممثلاً عن وادي العجم (وهو الاسم الذي كان يطلق على منطقة قطنا)؛ لأنه كان آنذاك مفتياً له.

---

(١) ذكرت هذه المعلومات في التقرير الرسمي لمندوب المفوض السامي الفرنسي الذي نشرته جريدة الأحرار في بيروت العدد: ٦٧٨ والفضل ماشهدت به الأعداء. أما الحوادث التي وقعت في جبل السويداء فقد جاءت بعد ذلك، ومن العجيب أن ينسب لأهل الجبل إشعال الثورة السورية الكبرى!! (أنظر مذكرات الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله: ج١ ص ٢١٩ الطبعة الثانية ١٩٨٩).

لقد فند العلماء المؤتمرون مزاعم المستعمرين الذين اتخذوا من ذريعة حماية الأقليات الدينية تكأة لاستعمارهم، وحثوا على الوقوف في وجه دسائسه، ودعوا المسلمين إلى النهوض من كبوتهم، والتخلص من عوامل الضعف، كما تطرقوا للحديث عن قضية فلسطين في تلك الفترة التي لم تكن فلسطين قد أغتصبت بعد. ولكن مؤشرات الخيانة من بريطانيا لم تكن خافية عن هؤلاء العلماء الأجلاء اللذين كانوا ولايزالون يعيشون قضايا أمتهم.[1]

(١) قامت اللجنة التنفيذية المركزية للمؤتمر بطباعة البيان الصادر عن المؤتمر في مطبعة الترقي بدمشق عام ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م. ونظراً لأهمية هذا المؤتمر من الناحية التاريخية فسوف أعطي ملخصاً عن هذا البيان في ملحق هذا الكتيب إن شاء الله، فلعل هذا يسهم في تغيير الانطباع السلبي السائد الذي حاول أعداء الإسلام إلصاقه بعلمائنا الأجلاء.

المبحث الثاني

الولادة والنشأة

ولد الشيخ إبراهيم بن محمد خير بن إبراهيم بن محمد الأصيل المشهور بالغلاييني في مدينة دمشق عام ١٣٠٠هـ والموافق ١٨٨٢م من أسرة ملتزمة بالدين، وكان جده الأعلى (والد جده) واسمه: (محمد) حلبي الموطن، وقد رحل إلى استنبول فأقام فيها مدة، ثم أتى بتجارة إلى دمشق فاستقر فيها.

كانت ولادته في حي العقيبة في دمشق في حارة تعرف (بتحت المئذنة) وهي سكنى والده، ثم انتقلت العائلة إلى حي السمانية المجاور لجامع السمرقندي الملقب بجامع التينة، وهناك نشأ الشيخ.

كان والده محمد خير تاجراً يبيع المنسوجات (وبخاصة الشراشف) بسوق الخياطين، وكان إلى جانب هذا حريصاً على حضور دروس العلم؛ مما دفعه ليكون مؤذناً بمسجد اشتهر باسم: (جامع السرايا) لقربه من قصر العدل.

أخذ الشيخ عن والده حب أهل العلم ودروسهم، فكان شغوفاً بهذا منذ نعومة أظافره، وظهر تدينه في فتره مبكرة جداً عندما كان يساعد والده في محله التجاري بدمشق، فقد لاحظ والده عليه غض البصر حين حضور النساء للمحل للشراء، وكان لايرغب بالبيع لهن وهو لايزال غض الإهاب، فقال له والده يبدو يابني أنك لست من أهل الدنيا، ولذلك وجهه لطلب العلم منذ نعومة أظافره وشجعه على ذلك، وكان في الخامسة عشرة من عمره.

طلبه للعلم وشيوخه الذين تلقى عنهم:

تلقى الشيخ تعليمه الابتدائي في المدرسة السفرجلانية، وكانت وقتها من أشهر المدارس في دمشق، وتقع في سوق الخياطين، وفيها تلقى مبادئ العلوم الشرعية والعربية وبعض المواد العلمية كالحساب والهندسة. وكان الشيخ عيد السفرجلاني رحمه الله من أشهر أساتذتها.[1]

كانت دمشق في أواخر القرن التاسع عشر تزخر بعلماء أجلاء كُثر، وكانوا يعقدون حلقاتهم في مساجد دمشق العامرة بطلاب العلم، وفي مقدمتها الجامع الأموي الذي حظي بعالم فذ ندر وجود مثيل له هو المحدث الأكبر: (الشيخ بدر الدين الحسني) رحمه الله الذي برع في فن الحديث رواية ودراية، وكان ثبتاً حافظاً يروي الحديث بسنده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ظهر قلب، وكان هذا العالم الجليل من أهم شيوخ الشيخ إبراهيم، فقد تلقى عنه فن الحديث وعلومه لسنوات عدة، وهذا مايفسر لنا كثرة استشهاده بالحديث النبوي في خطبه ودروسه ومواعظه كما سوف نرى.

نهج الشيخ طريقة أهل العلم في الطلب، فأخذ العلوم الشرعية والعربية عن أكابر أهل العلم في عصره، فأخذ الفقه الحنفي عن مفتي الديار الشامية الشيخ عطا الله الكسم (١٢٦٠ - ١٣٥٧) لمدة ست

---

(١) تحدث الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله في ذكرياته كثيراً عن هذه المدرسة التي درس فيها لسنوات عديدة.

سنوات، كان بصحبته في هذا الطلب الشيخ عبد الوهاب الحافظ الملقب دبس وزيت. كما أخذ علوم العربية عن الشيخ محمود العطار من قرية كفرسوسة من ضواحي دمشق. وممن أخذ عنهم علوم العربية أيضاً: الشيخ عبد القادر الاسكندراني في العقيبة من أحياء دمشق. وقد حصل الشيخ على إجازات مكتوبة من هؤلاء الشيوخ الأفاضل.[1]

أما علم السلوك فأخذه عن الشيخ المربي: عيسى بن طلحة الكردي الشافعي (١٢٤٧ - ١٣٣١) وكان له قصب السبق في هذا المجال، فقد تلقى عنه الطريقة النقشبندية، وأجازه فيها، ولازمه لفترة كافية، وقال له في نهاية المطاف: (الآن يا إبراهيم صرت شيخاً كاملاً ومكملاً).[2]

لقد كان الشيخ عيسى رحمه الله طاقة روحية نافذة، وقدرة عجيبة في تربية مريديه والتأثير فيهم، وقد بدأت ملازمة الشيخ له في أواسط العشرينات من عمره مما ترك أثراً كبيراً في نفسه وسلوكه لازمة طيلة حياته، وقد اتبع الشيخ عيسى طرقاً عدة لتوجيه مريديه كان لها الأثر الفعال في سلوك تلامذته.[3]

---

(١) رأيت هذه الإجازات بنفسي بمكتبة والدي رحمه الله لكنها مع الأسف ضاعت بعد ذلك.

(٢) نقلاً مما خصني به عمي الشيخ سعد الدين رحمه الله كتابة ص٢.

(٣) من هذه الطرق التي كان يربي بها الشيخ عيسى مريديه عليها: الخلوة، ولذا كان يأمرهم بالاعتكاف في مكان بجبل قاسيون المطل على دمشق لمدة معينة، وقد روى لي والدي حفظه الله بأن جدي قام بذلك، وكان سنة آنذاك خمسة وعشرين عاماً، وكان والده يأتيه بالطعام الطازج فلا يأكله ويوزعه على الفقراء، ويكتفي بالخبز الجاف وبعض الإدام، وروي عنه قوله عن هذه التجربة: (شعرت كأنما نفسي الأمارة بالسوء قد خرجت من بين أضلعي) وقد قال هذا في مجلس خاص لأولاده تشجيعاً لهم، ولم يقله في مجلس عام لأنه يكره الحديث عن نفسه كما يكره أن يمدح في وجهه.

كما تلقى عن الشيخ: سليم المسوتي صاحب المناقب المشهودة في علم السلوك أيضاً.

ومن العلماء الذين تلقى عنهم أيضاً: الشيخ عبد الرحمن البرهاني الحنفي[1]. والشيخ سليم النطفجي، وهو والد زوجته أيضاً.

جهود الشيخ الدعوية في دمشق:

بدأ الشيخ نشاطه الدعوى في جامع السمرقندي بدمشق، فقد تولى إمامته، وإقامة الدروس فيه، فكان يلقي درساً يومياً بعد صلاة العشاء، كما كان يعقد الختم النقشبندي[2] ليلاً كل يومي اثنين وخميس، وكان من أشهر تلاميذه في تلك الفترة: الشيخ والداعية المعروف محمد بدر الدين عابدين رحمه الله[3].

الشيخ في قطنا:

قطنا بلدة هادئة تقع على جانب السفح الشرقي لجبل الشيخ إلى الجنوب الغربي من دمشق، وتبعد عنها مسافة ٢٤ كم، ويقطن فيها إلى جانب المسلمين نسبة من النصارى قد تصل إلى ثلث أهلها في تلك الفترة.

---

(١) ذكر هذا الشيخ عبد اللطيف فرفور في كتابه، أعلام دمشق في القرن الرابع عشر الهجري: ج٣ ص ٤-٥.

(٢) وهو عبارة عن جلسة ذكر يتولى الشيخ إدارتها، وتشتمل على أذكار مأثورة وأدعية، وليس فيها وقوف أو تمايل كما تفعل بعض الطرق الصوفية الأخرى.

(٣) سيرد الحديث عنه حين الكلام عن تلاميذ الشيخ.

امتهن معظم أهلها الزراعة في تلك الفترة ولكن حالتهم الاقتصادية كانت ضعيفة، وكان المسلمون يقترضون من غير المسلمين عند الحاجة – وأحياناً بالفائدة – وكانوا كذلك يلجؤون إلى زعمائهم – على قلة – لفض بعض النزاعات التي قد تنشب بينهم، وقد بدأت هذه البلدة مرحلة جديدة من تاريخها بعد انتقال الشيخ إبراهيم إليها.

ظهرت بوجود الشيخ في قطنا – إماماً وخطيباً – لجامعها الوحيد آنذاك: (الجامع العمري) الواقع في السوق الرئيسي للبلدة نهضة إسلامية شاملة، فصار المرجع في حل أي خلاف يقع بين المسلمين، وارتدع المسلمون الذين كانوا يقترضون بالربا من غير المسلمين، وبدأ عدد المرتادين للمسجد يزداد.

أما قصة قدومه إلى قطنا: فقد بدات من قبلَ الشيخ: (أحمد الأحمر) شيخ قطنا آنذاك، وهو في الأصل من بلدة: (التل) المجاورة لدمشق، حيث أصر على الشيخ إبراهيم بالانتقال إلى قطنا لاستلام إمامة مسجدها والخطابة فيه،وقد أبى صاحب الترجمة قبول هذا حتى يستشير شيخه (عيسى الكردي) في هذا الأمر، فأشار عليه بالقبول. ولكن بشرط عدم قبول راتب على هذه المهمة؛ لأنها تتعلق بإقامة شعائر تعبدية، والأصل في هذا عدم أخذ الأجرة عليها كما هو معلوم عند الفقهاء المتقدمين. أخذ الشيخ بهذه النصيحة، فرحل إلى قطنا عام ١٣٢٩هـ الموافق ١٩١١م وكان يأخذ معه من دمشق بعض المأكولات؛ ليبيعها في قطنا؛ ليكسب منها قوت العيش، إلى جانب قيامه بواجبه الشرعي في الإمامة والتدريس والخطابة متطوعاً.

كما قامت زوجته بمساعدته في هذا الشأن، فكانت تجلب معها بعض المنسوجات واللوازم النسائية لتبيعها للنساء هناك.[1]

أبى كرم أهل قطنا أن يظل حال الشيخ على هذا المنوال من الكدح فصاروا يجلبون إلى داره شيئاً مما يزرعون من قمح؛ ليعينه على معيشته عند جني المحصول. وقد ظل الشيخ على هذه الحالة لمدة تقارب الخمس سنين، ثم عرض عليه قاضي قطنا الشرعي تولي مهمة القضاء عنه، ولكنه رفض[2]، ولكن لما عرض عليه منصب الإفتاء قبل به، فرفع اسمه إلى الآستانة (استانبول) فجاء تعيينه من قبل مشيخة الإسلام، وبقي في هذا المنصب إلى ماقبل وفاته بستة أشهر عام ١٩٥٨م.

حيث قدم الشيخ رحمه الله استقالته من منصب الفتوى لأسباب صحية، وتم تعيين ابنه الشيخ عبد الله رحمه الله مفتياً من قبل وزارة الأوقاف في حياة والده.

انتقل الشيخ إلى دمشق قبل وفاته بشهر ونصف، وقد توفي فيها في ١٥ شوال عام ١٣٧٧هـ الموافق ٥ أيار ١٩٥٨م عليه رحمة الله ورضوانه، وشيع في جنازة مهيبة مشهورة، حيث صلي عليه في الجامع الأموي وشيع مشياً على الأقدام إلى مقبرة باب الصغير والتي يوجد فيها قبر سيدنا بلال الحبشي رضي الله عنه.

---

(١) علما بأن زوجته كانت على قدر لابأس به من العلم الشرعي، فهي ابنة الشيخ سليم النطفجي كما عرفنا، وكان لها دور هام أيضاً في توجيه النساء المسلمات في قطنا، إذ كانت تعقد لهن دروساً عامة في المسجد.

(٢) لعله في هذا كان يقتفي أثر الأئمة الورعين، ومنهم: الإمام أبو حنيفة رحمه الله؛ لأنه جلد على تولي القضاء زمن ابي جعفر المنصور فرفض تورعاً.

المبحث الثالث

أسانيد الشيخ في الحديث

عرفنا من سيرة الشيخ أنه أخذ الحديث بصورة أساسية عن شيخه بدر الدين الحسني الملقب بالمحدِّث الأكبر، وكان للشيخ إلى جانب ذلك أسانيد في الحديث أخذها عن عدد من الشيوخ فهو يروي عن:

١ – شيخه مفتي الشام عطا الكسم الدمشقي الحنفي (١٢٦٠ – ١٣٥٧) وهو عن:

أ – سليم بن ياسين العطار، عن جده حامد، عن عبد الرحمن الكزبري الصغير، وإبراهيم الباجوري، ومحمود اللوسي، وعبد الرحمن الطيبي، وعمر الآمدي، وسعيد الحلبي.

ب – عبد الغني الميداني، عن سعيد الحلبي، والكزبري الصغير، وحسن البيطار، ومحمد أمين عابدين.

ت – محمد الطنطاوي، عن إبراهيم الباجوري، وعبد الرحمن الطيبي، وسعيد الحلبي، وإبراهيم السقا.

ث – أحمد الحلبي.

ج – عبد الحكيم الأفغاني.

ح – عبد الله السكري.

٢ – عيسى بن طلحة الكردي الشافعي (١٢٤٧ – ١٣٣١ هجري) وهو عن:

– إبراهيم الباجوري.

٣ – سليم المسوتي، وهو عن:

- بكري العطار، واحمد الحلبي، وسليم العطار، وأحمد محمد الكزبري.

٤ – عبد القادر الاسكندري (ت ١٣٦٢هـ) وهو عن:

- بكري العطار.
- محمد بن محمد الخاني.
- عبد الحكيم الأفغاني.
- محمد بدر الدين الحسني.
- محمود العطار.
- عمر بن حمدان.
- محمد علي المالكي المكي.
- عيدروس بن سالم البار المكي.
- أحمد بن محمد السنوسي الادريسي.[١]

(١) أنظر: (إمداد الفتاح بأسانيد ومرويات الشيخ عبد الفتاح)، وهو ثبت العلامة المحدث الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، بتخريج تلميذه محمد ابن عبد الله آل رشيد. ص: ٣٢٧ – ٣٢٨. وانظر: (بلوغ الأماني الأبرار في التعريف بشيوخ وأسانيد مسند الديار الحلبية) الشيخ أحمد بن محمد سردار الحلبي الشافعي ص: ١٤٠ فما بعدها.

المبحث الرابع

الصفات التي تحلى بها

تميز الشيخ بصفات حميدة جعلت منه أنموذجاً للعالم العامل في عصره، فقد كان إلى جانب حرصه على اكتساب العلم من مظانه، حريصاً على ما يتعلمه، وبخاصة السنة النبوية حتى قيل عنه: بأنه السنة تمشي على الأرض، وكان إلى جانب ذلك واعياً بما يدور حوله، مهتما بحال المسلمين: من تحديات فكرية أو حضارية من جراء الاحتلال الفرنسي لبلده.

وبهذا نلحظ تكاملاً في شخصيته: فهو فقيه متمكن، ذو نزعة صوفية تشدّ من أزره للقيام بواجبه الإسلامي تجاه أمته، آخذاً بالعزيمة في تطبيق أمور الشرع على نفسه وعلى من حوله ممن استرعاه الله أمرهم، مثل أسرته، وأهل بلدته، بل كل مسلم تتاح له فرصة الاتصال به، معالجاً القضايا المستجدة بالتعاون مع إخوانه العلماء، مبيناً وجهة نظر الإسلام فيها، ومدافعاً عن حقوق المواطنين الفردية أو الجماعية أمام ظلم المستعمر الفرنسي وبطشه، ولعلي أوجز هذه الصفات الحميدة في النقاط التالية:

الالتزام بشرع الله سبحانه:

استقرَّ في عقل الشيخ وروحه ان حجر الزاوية في أي تغيير فردي أو جماعي إنما يكون بالالتجاء إلى الله سبحانه وتعالى، واللوذ بحماه، وهذا لا يتحقق من خلال شعائر التعبد والذكر فحسب؛ بل بالخضوع

التام لشريعة الله سبحانه في كل الأمور.

لقد كانت عند الشيخ غيرة عجيبة على حرمات الله سبحانه، وشعائر الإسلام، فطالما سمعت بنفسي من أهالي قطنا قصصاً عجيبة عن ذلك، ومن ذلك: أنه إذا مرَّ في الطريق تهابه النساء، فلا تبقى واحده منهن خارج منزلها، رغم أن الحجاب كان أمراً عادياً لجميع المسلمات في تلك الفترة.

أما بالنسبة للرجال فإن من عادة الشيخ المشهورة: أنه كان يحاول جاهداً في دعوة كل من يلقاه في طريقه لمرافقته إلى المسجد لأداء صلاة الجماعة.

لقد بلغ الشيخ في هذا الأمر مبلغاً لا يقدر عليه إلا من أوتي رباطة جأش وعزيمة نافذة. فقد حدثني والدي حفظه الله بأن الشيخ وقف ذات يوم أمام مقهى الرنكوسي، (وكان يسمى بقهوة الشركس) قبيل الصلاة، فوعظ من فيها، وأبلغ في ذلك حاثاً لهم على حضور صلاة الجماعة، فغضب بعض الشراكس الذين كانوا مجندين في الجيش الفرنسي، حتى أنهم ترصدوا بالشيخ عقب عودته من المسجد ليوقعوا به في أحد المنعطفات، ولكن ما إن ظهر الشيخ حتى تخاذلوا وسُقط في أيديهم، فقد كانت له مهابة مشهودة رحمه الله.

لنستمع إلى الشيخ وهو ينصح ابنه سعد الدين وحفيده محمد خير في رسالة بعث بها إليهما وهما في مصر يطلبان العلم في الأزهر الشريف فهي خير شاهد على ما أقول: (يا أولادي، الأماني كثيرة، ولكن الأمر جد وعمل، وسعي مبارك ضمن نطاق الكتاب والسنة، وطبق التأسي

بأهل السنة، جعلنا الله تعالى معهم في الدنيا والآخرة).[1]

وقد أثر عنه قوله مراراً: (نحن نلجم التصوف بلجام الشريعة).[2]

ولاشك بأنه كان للتربية الروحية، وللخلفية العلمية التي قضى الشيخ سنوات مديدة من عمره في تحصيلها على يد علماء أجلاء الأثر الفعَّال في التزامه بشرع الله، وحث كل من يلوذ به على ذلك.

شجاعته وجرأته في الصدع بالحق:

كان الشيخ آية في هذا الأمر، وقد شاع عنه ذلك؛ لتكرار المواقف التي ظهرت فيها هذه الخصال الحميدة، وهذا من فضل الله على هذه الأمة أن هيأ لها رجالاً يقومون بهذا الواجب على مر العصور كي تظل حية متيقظة آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر.

لم تكن جرأة الشيخ في الصدع بالحق مقتصرة على عوام الناس، بل طالت الحكام، وعلى أعلى المستويات حتى رئيس الجمهورية.

من القصص المشهورة عنه في هذا المجال: انه ذهب مع وفد من رابطة العلماء لمقابلة رئيس الجمهورية السيد شكري القوتلي، ومن هؤلاء العلماء: الشيخ أبو الخير الميداني، والسيد مكي الكتاني، والشيخ محمد الهاشمي، والشيخ حسن حبنكة، رحمهم الله جميعاً، وكان

---

(١) أرسل الشيخ هذه الرسالة لهما عام ١٩٥٨ عندما كانا يدرسان في الأزهر الشريف، وسوف آتي على ذكرها مفصلة فيما بعد إن شاء الله.

(٢) سمعت هذا من تلميذه وصهره الدكتور محمد أديب صالح حفظه الله.

الهدف من هذه المقابلة تنبيه الرئيس إلى بعض المنكرات التي ظهرت في البلد؛ ليتخذ الإجراءات المناسبة حيالها. وعندما أدخل العلماء إلى الغرفة المخصصة للاجتماع لاحظ الشيخ وجود تمثال للنسر – وهو شعار الجمهورية –، فلم يرض بالجلوس حتى يزال؛ لأنه محرم في شريعة الإسلام.[1]

وحاول بعض العلماء المرافقين له إقناعه بغض الطرف عن هذا الأمر لأنهم أتوا لأمر أكثر أهمية منه، فما كان من الشيخ إلا الإصرار على موقفة قائلاً: نحن إنما جئنا لإنكار المنكر فكيف سنتحدث عن هذا الموضوع والمنكر موجود بين أيدينا والسكوت إقرار.؟!

ولما علم الرئيس بهذا – قبل دخوله عليهم طبعاً – أمر بوضع غطاء على التمثال تطييبا لخاطر الشيخ.

فرضى الشيخ بالجلوس، وتمت المقابلة، وكانت مثمرة بتوفيق الله وببركة إنكار المنكر.[2]

وفي هذه المقابلة نصح الشيخ الرئيس – إضافة لما تحدث به إخوانه العلماء – بأن يعطي توجيهاته لقادة الجيش كي يتم تغيير شكل لباس

---

(١) ورد النهي عن اتخاذ الصور والتماثيل لكل ذي روح في أحاديث صحيحة، ومنها: ماروا ه ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (كل مصور في النار، يجعل بكل صورة صورها نفس، فيعذبه في جهنم) قال ابن عباس: (فإن كنت فلا بد فاعلاً فاصنع الشجر ومالا روح فيه) متفق عليه.

(٢) سمعت هذه القصة لأول مرة من استاذي شيخ القراء الشيخ محمد كريم راجح حفظه الله، عندما كنت طالباً في الثانوية الشرعية، ثم سمعتها مراراً بعد ذلك من عدد من أهل العلم والفضل.

الجيش السوري لأنه كان مقتبساً من لباس الجيش الفرنسي في تلك الفترة، وهذا لا يليق ببلد حر مستقل.

لقد كانت للشيخ مواقف مشهودة أيضاً مع المحتلين الفرنسيين عندما كان مفتياً في قطنا، فمن مواقفه مع الفرنسيين: أنه سمع بأن جندياً فرنسياً مسلحاً كان يسكن في مكان قريب من منزل الشيخ أراد الاعتداء على امرأة مسلمة، فما كان من الشيخ إلا أن ذهب بنفسه مباشرة واقتحم المنزل وانهال ضرباً على الجندي بعكازه، واقتاده إلى المخفر بنفسه طالباً من المسؤول الفرنسي معاقبته على فعلته.[1]

ويضيف ابن الشيخ سعد الدين رحمه الله بأن هذا الجندي حقد على الشيخ وأراد فيما بعد الانتقام منه، فكمن له ببندقيته عند إحدى المنعطفات متربصاً بالشيخ؛ ليقتله بعد خروجه من المسجد، ولما ضغط على الزناد لم تخرج الطلقة، وشعر بالخوف من هيبة الشيخ وسقطت البندقية من يده فجاء إليه معتذراً يقبل يده، ويسأله العفو.

لقد تدخل الشيخ لدى قادة الفرنسسين في عدة مناسبات مطالباً إياهم برفع الظلم عن المواطنين، ومن ذلك: ذهابه للقائد الفرنسي مطالباً بوقف القصف الجاري بينهم وبين الإنكليز في عهد حكومة فيشي الموالية للألمان، وذلك حين وقعت قطنا في مرمى مدفعية كل من الجيشين المتحاربين في أواخر الحرب العالمية الثانية.

---

(١) كان برفقة الشيخ في هذا الموقف تلميذه الشيخ محي الدين القادري رحمه الله، وكان من تلاميذ الشيخ البارزين في قطنا، وكثيراً ما كان يروي هذه القصة، وسوف أذكر نبذة عنه حين الحديث عن تلاميذ الشيخ بعون الله.

إستقبل هذا القائد الشيخ استقبالاً حسناً، ودعا مترجمه كما روى الدكتور محمد أديب صالح، ووضع الخرائط أمامه شارحاً له صعوبة الموقف بالنسبة لقواته، أوصى الشيخ بأن يقنع الأهالي بالخروج من البلدة مؤقتاً حتى ينجلي الموقف؛ ليجتنبوا مخاطر هذا القصف. وعندما اقترح الشيخ على أهالي قطنا الخروج مؤقتاً من قطنا تجنباً لوقوع ضحايا في الأنفس استجابوا له، وخرجوا متجهين إلى قرية مجاورة تقع في الشمال الغربي من قطنا اسمها (خربة كفر قوق)، وقد استثمر الشيخ رحمه الله هذا الخروج على أحسن وجه، فأخذ يعقد جلسات للوعظ والتعليم بعد صلاة الجماعة، وكانت النفوس مهيأة بالطبع لاستقبال هذا، وكيف لا وهم يواجهون محنة ربما لم يسبق لهم التعرض لها خلال حياتهم، وقد حصلت حادثة أخرى خلال هذه الحوادث تدل على ثقة الشيخ بربه ورباطة جأشه في أحلك الظروف، وهي أنه في أحد أيام هذه المعارك بين الانكليز والفرنسيين، وبينما كان الشيخ يصلي صلاة العصر إماماً في جامع العمري، وقعت قذيفة طائرة حربية قريباً من المسجد فتفرق المصلون تاركين الصلاة، وبقي الشيخ وحيداً يتابع صلاته رافعاً صوته بتكبيرات الزوائد، وكأنه يحثهم على الرجوع للصلاة والثبات حتى أتم صلاته كعادته رحمه الله.[1]

ومن القصص الدالة على جرأته أيضا – كما حدثني والدي –

(١) سمعت هذه القصة من والدي حفظه الله، ومن المعلوم تاريخياً أن الانكليز دخلوا سوريا في أواخر الحرب العالمية الثانية للقضاء على القوات الفرنسية التابعة لحكومة فيشي الموالية لألمانيا.

:دعوته للميجر الإنكليزي الذي زاره في منزله لوقف منع التجول الذي فرضته قواته ليقوموا بتفتيش البيوت بحثاً عن مسروقات أخذت من مستودعات جيشهم المحتل، ومن الملفت للنظر في هذه القصة: أن الشيخ لم يقف للميجر عندما دخل عليه غرفة الضيوف في منزله؛ ليريه عزة المسلم، وكذلك إظهاراً لغضبه من التصرفات اللاإنسانية والتي كانت تمارسها قوات المستعمر الإنكليزي آنذاك.

ومن القصص أيضاً: ما ذكره عمي الشيخ سعد الدين فيما كتبه عن والده رحمه الله أنه ذهب مع والده وضيوف قدموا من دمشق لزيارة الشيخ في نزهة إلى النبع الأساس في قطنا ويسمى رأس النبع، وكان الجنود الفرنسيون قد جعلوا تلك المنطقة محرمة على المواطنين؛ ليستأثروا بالاستمتاع بها، ولكن الشيخ لم يأبه لهذا ومشى داخل هذه المنطقة يتبعه ضيوفه. وعندما حان موعد صلاة المغرب إذا بالشيخ يذهب إلى عين الماء التي يستأثر بها الفرنسيون لصفائها وعذوبتها ويشرع بالوضوء حاثاً ابنه سعد أن يحذو حذوه، فغضب الجنود ورفعوا أصواتهم زاجرين، وحصبوه بالحصى، فلم يعرهم الشيخ أي اهتمام، وتابع وضوءه وكلما توقف ابنه خوفاً من الجنود زجره وأمره بالمتابعة حتى انتهيا من وضوئهما ثم أدوا الصلاة جماعة بدون أي خوف، ونظراً لما أبداه شيخهم من رباطة جأش وعزيمة ماضية.[1]

لقد كان الشيخ – إلى جانب قيامه بهذه المواقف – يشجّع تلاميذه

(١) ذكر عمي الشيخ سعد الدين رحمه الله هذه القصة ضمن ما كتبه لي بخط يده حول الشيخ.

على الجرأة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكمثال على هذا أنه لما كان إماماً في جامع السمرقندي بدمشق بحي السمانة وبينما كان الشيخ في جلسة ذكر مع تلاميذه إذا بحفلة عرس إلى جانب المسجد تعكر عليهم صفو جلستهم بما صدر عن المشاركين فيها من غناء ومنكر وأمور مخلّة بالآداب، فإذا بتلميذه النجيب محمد بدر الدين عابدين رحمه الله يذهب إليهم مباشرة بمبادرة شخصية منه ليعظهم ويوقفهم عما هم فيه، وعاد للجلسة هدوؤها ووقارها.[1]

عدم التزلف للحكام:

كان رحمه الله لا يحب الوقوف بباب الحكام، وأثرعنه قوله: (بئس العلماء في باب الأمراء، ونعم الأمراء في باب العلماء)، ولذا لم يعرف عنه الوقوف ببابهم إلا لمطلب إسلامي، وعندها يذهب برفقة إخوانه علماء دمشق مطالباً بالوقوف عند حدود الله سبحانه، لا متملقاً أو متزلفاً. وكثيراً ما ترأس وفود العلماء لمقابلة رئيس الجمهورية لهذا الغرض.

وفي الصورة المرافقة نرى الشيخ يقوم بلفت نظر رئيس الجمهورية: شكري القوتلي إلى أهمية تخصيص مكان للموظفين بدوائر الدولة ليتمكنوا من تأدية صلاة الظهر؛ لأن وقتها يحين خلال أدائهم لعملهم.

لقد كان الشيخ رحمه الله على وعي تام بأن على حملة العلم أن يرعوا حرمة الرسالة التي يحملونها، والهدف النبيل الذي يجب أن

(١) كان الشيخ بدر الدين عابدين رحمه الله يذكر هذه القصة كثيراً.

يحرصوا على بلوغه. ولن يتم لهم هذا إلا من خلال التجرد لهذا الدين من الأغراض الدنيوية وعلى رأسها حب الشهرة. وقد أثر عنه قوله: (حب الظهور يقصم الظهور).

وتوضح الصورة التالية هذا المعنى فقد أخذت في جامع المنصور الذي كان إمامه الشيخ صالح فرفور. ويبدو الشيخ إبراهيم في الوسط (على يمينه رئيس الجمهورية شكري القوتلي، وعلى يساره ابنه الأكبر محمد بدر الدين) وهو ينصح الرئيس بتخصيص غرفة لموظفي الدولة ليتمكنوا من أداء الصلاة جماعة أثناء الدوام الرسمي كما أخبرني بذلك والدي اللذي يظهر في الصورة الأول من اليمين.

وهناك قصة أخرى معبرة في هذا المجال وهي أنه في بداية الوحدة بين سوريا ومصر قرر رئيس الجمهورية جمال عبد الناصر زيارة سوريا، وكانت تدعى آنذاك بالإقليم الشمالي، فاندفع الناس من كل

حدب وصوب لرؤية الرئيس، وكان الشيخ حينها في زيارة لأحد أحبابه في حي المهاجرين القريب من القصر الجمهوري، فجاءه بعض إخوانه بسيارة راجين منه مرافقتم ليشارك بالسلام على الرئيس مع بقية إخوانه العلماء، ولكنه اعتذر، وتوفي في تلك السنة ولم يلتق الرئيس.

وقد حدثني والدي رحمه الله أنه لما جاء رئيس الجمهورية: تاج الدين الحسني بن العلامه الشيخ بدر الدين الحسني لافتتاح أول محطة لتوليد الكهرباء في قطنا. دعي الشيخ للحضور ولكنه اعتذر قائلا: لا حاجة لي هناك. هذا رغم أن الرئيس هو ابن شيخه كما عرفنا والمكان جد قريب من منزل الشيخ.

حرصه على اتباع السنة:

مع هذه الصفات الحميدة التي تميز بها الشيخ، فقد كان حريصاً على تطبيق السنة على نفسه، وعلى أولاده وكل من يلوذ به، وقد سنَّ في قطنا سنة حميدة لم نسمع أحداً في عصره قام بها، وهي إحياء سنة التكبير ليلتي عيد الفطر وعيد الضحى في الطرقات، فكان يمشي مع إخوانه بعد صلاة العشاء في المسجد بشكل جماعي في طرقات قطنا مكبرين ومظهرين الفرح بقدوم العيد.[1]

وكان دائم الاعتكاف في العشر الآواخر من رمضان في الجامع العمري. وحافظ أولاده على هذه السنة وبخاصة والدي وعمي الشيخ محمد بدر الدين رحمه الله، لأني رأيت ذلك بنفسي.

---

(١) وقد حافظ أولاده من بعده على هذا طيلة حياتهم رحمهم الله جميعاً.

ومن الأمثلة على هذا أيضاً: أنه كان لا يترك سنة غسل الجمعة حتى ولو كان مسافراً، وكان حريصاً على صلاة النافله، ومنها: صلاة الضحى. وسأله أحد تلاميذه عن قسوة يجدها في قلبه بين صلاة الفجر والظهر، فسأله الشيخ: أتصلي صلاة الضحى؟ قال: لا، قال: فهذا هو السبب.

حدثني الدكتور: محمد الصباغ حفظه الله أنه صحبه في سفره داخل سورية: فحدث معهم حادث سير يسير، فأرجع الشيخ السبب إلى نسيانهم دعاء السفر المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأخذ يدعو ويستغفر الله سبحانه، ويحثهم على ذلك.

وكان السواك ملازماً له حرصاً على الاقتداء برسول الله عليه الصلاة والسلام.

وقد حدثني والدي حفظه الله أن والده رآه يوماً وقد حف وجنتيه – وكان في مقتبل الشباب – فغضب ونهاه عن ذلك، حرصاً على اتباع السنة في الإعفاء عن اللحية كلها. وهذا ما جعل أولاده يلتزمون بهذه السنن طيلة حياتهم والحمدلله.

خدمته لبيوت الله:

كان رحمه الله حريصاً على إشادة بيوت الله وإعمارها مادة ومعنى، ومن ذلك: أنه حثَّ بعض تجار دمشق على شراء العقار المجاور للمسجد الوحيد في قطنا: (الجامع العمري) وكان ملكاً لغير المسلمين، وقد اتخذ الطابق العلوي منه نادياً للقمار وشرب الخمر، أما الطابق الأرضي

فكان محلات تجارية، وكان ريعها عائداً للنادي، وقد تحمس لهذا تاجرٌ من عائلة سكر من دمشق بسوق الخياطين، فجمع المبلغ المالي المطلوب، وتم شراء العقار، وأصبح الدور العلوي شققاً للإيجار، وبقيت المحلات التجارية على حالها، وصار ريع كليهما وقفاً لصالح المسجد والحمد لله، وبهذا حمى جوار المسجد من أن يكون مكاناً لممارسة ماحرم الله، بل تمّ دعم المسجد بمورد مالي ثابت.

لقد كان حلم الشيخ أن يرى مسجداً آخر في قطنا، وكانت بجوار منزله حديقة تابعة للبلدية، وكانت تستخدم لإقامة الأعراس، وطرح الأعضاء المسلمون بمجلس البلدية الاقتراح ببناء مسجد في هذه الحديقة بتشجيع من الشيخ، وتم شراء الأرض، وشكلت لجنة للبناء برئاسة الشيخ، وبدأت بجمع الأموال، وعندها قال الشيخ لوالدي: آمل أن أرى ولو متراً واحداً من بناء المسجد قبل وفاتي، ولكن هذا الأمل لم يتحقق فانتقل الشيخ إلى جوار ربه، وتابعت اللجنة عملها حتى اكتمل البناء بحمد الله، وسمي الجامع باسم الشيخ وفاءً لجهوده في هذا المجال، كما سميت الساحة المقابلة للجامع باسمه أيضاً، واعتمد هذا الاسم من البلدية رسمياً.

كرمه ورحمته بالمساكين :

إن كرم المرء يعرف من حب إخوانه لزيارته بدون تردد، فإذا كان بابه مفتوحاً لهم مع البشاشة والترحاب فإن هذا دليل الكرم، وهكذا كان الشيخ رحمه الله، فإضافةً للزوار من أهالي قطنا وقراها الكثيرة فإن بعض الدمشقيين كانوا يقدمون على الشيخ بصورة مستمرة رغم بعد

قطنا نسبياً عن دمشق في ذلك الوقت لصعوبة المواصلات، وكل منهم يجد الضيافة المناسبة، وربما نام بعضهم في منزله فيسارع الجيران بجلب الفرش والأغطية لتلبية احتياجات الضيوف.[١]

كان الزائرون للشيخ ذوي أغراض متنوعة، ويأتي في مقدمتهم العلماء الأجلاء الذين كانوا يقصدونه للزيارة والتشاور، وأصحاب المطالب الإسلامية عند أُولي الأمر، كما سوف نرى من خلال ما ذكره الشيخ شعيب الأرناؤوط حفظه الله فيما خصَّني به من معلومات قيِّمة عن الشيخ.[٢]

وقد كان أصحاب الحاجات الخاصة يقصدون الشيخ فيلبي حاجاتهم مسروراً، مما جعل منزله مقصداً للمساكين، وقد خدمته بنفسي في فترة صيف عام ١٩٥٦م تقريباً وكنت صغيراً، وكانت مهمتي فتح الباب للضيوف وتقديم الضيافة لهم.

وكان يقصد والدي من هؤلاء أصحاب الحاجات بعد وفاة جدي رحمه الله لأنه غدا مفتياً لقطنا، وكان والدي يقول لي: هذا ممن كان يأتينا أيام جدك فيكرمهم، وإني لازلت أذكر كيف أتانا رجل بقصيدة مدح للشيخ إبراهيم يطلب عطاء بها، وتعجبت حينها؛ لأن النعمة كانت بادية

---

(١) هذه العادة الكريمة كانت معروفة إلى زمن قريب، وهي تدل على مدى الترابط الاجتماعي بين الجيران الذي نشأ من خلال تعاليم الإسلام وقيمه الحضارية، ثم غدت غريبة الآن مع الأسف لابتعادنا عن هذه القيم.

(٢) استكتبت الشيخ شعيب حفظه الله عن الشيخ إبراهيم مشكوراً في عدة صفحات فكانت المقدمة التي ذكرناها في أول الكتاب.

عليه، ولله في خلقه شؤون.

ومن الأمور التي تدل على عطفه على المساكين: أنه كان يحرص على إرسال الطعام لمن يراه بحاجة من جيرانه، وكان يفضِّل ألا يبيت شيء مما طبخه أهله في المنزل في ذلك اليوم، حتى إن زوجته لتخفي الطعام عنه في بعض الأحيان عندما تكون متعبة وغير مستعدة للطبخ في اليوم التالي.[1]

وكان من عادته أيضاً: أخذ بعض الأرغفة معه حين ذهابه لصلاة الفجر لتوزيعها على الفقراء، وأحياناً يعطيها للكلاب التي كانت تشاهد عند بابه في ذلك الوقت المبكر، لأنها تعودت على كرمه، وكان يحافظ على هذه العادة الحميدة ولو كان ضيفاً على أحد إخوانه إذ يطلب منه بعض الأرغفة لتوزيعها، وكان يستشهد على عادته هذه بقول النبي صلى الله عليه وسلم: (باكروا بالصدقة فإن البلاء لا يتخطاها).[2]

نستطيع الاستنتاج من هذا أنه على أهل العلم أن يكونوا قريبين من الناس؛ كي يسهموا في معالجة مشكلاتهم وتوجيههم إلى الموقف الشرعي السديد؛ إذ لا يكفي الاقتصار على التعليم والوعظ في المسجد، بل لابد من التفاعل مع جمهور المسلمين في المجالات الأخرى.

---

(١) حدثتني والدتي الكريمة بهذا لأنها سكنت في بيت جدي في السنوات الأولى من زواجها.

(٢) رواه الطبراني في المعجم الوسط ٦/ ٢٩٩ الطبعة الأولى، ومعنى باكروا: أي عجلوا بها في الصباح الباكر.

تواضعه:

كان الشيخ معروفاً بتواضعه، فلم يكن يحب الظهور أبداً، ولهذا فلم يكن يتطلع إلى الكلام عند حضوره اللقاءات أو الاحتفالات، ولكن الناس كانوا شغوفين لسماعه، لذا كانوا يلحّون عليه ليتحفهم ولو بكلمات يسيرة.

كان لا يتكلف في حديثه أو خطاباته، وغالباً ما كان ينزع إلى الإقلال في الكلام، ولكن كلامه على جزالته له تأثير عجيب، يشهد بذلك كل من استمع إليه.

لم يكن يرى نفسه أفضل من غيره، لذا كان احترامه لغيره من العلماء أمراً مشهوداً به، ولعل لتربيته الصوفية في الصغر الأثر العميق في ذلك، لنستمع إليه وهو ينصح ابنه وابن ابنه في الرسالة التي سبقت الإشارة إليها: (واعلموا أن روح نهجم إسقاط الدعاوى جملة، واتهام النفس، والنظر للخلق بعين الكمال، والإنصاف معهم، والأدب مع جميعهم).[1]

ومن القصص التي سمعتها عن تواضعه: ماذكره لي سيدي الوالد نقلاً عن الشيخ محمد بدر الدين عابدين أنه عندما كان مديراً للمدرسة الإبتدائية في قطنا زار الملك فيصل قطنا عام ١٣٤٣هـ - ١٩٢٣م بعد أن صار ملكاً على سورية، فقام الأهالي باستقباله، ورتبوا حفلاً لذلك، وكان من فقراته مشاركة طلاب المدرسة الابتدائية بإلقاء قصيدة شعرية من

(١) من رسالة الشيخ لابنه سعد الدين عندما كان طالباً في الأزهر الشريف ص ١.

تأليف المدير، وكلف بإلقائها نجل الشيخ محمد بدر الدين، وكان عمره آنذاك اثني عشر عاماً، وكان إلقاؤه قوياً جداً مما جعل الملك يسأل عن هذا الغلام فقيل له: إنه ابن من يجلس عن يمينك، وكان الشيخ يجلس إلى جواره، فقال الملك (ظننت هذا الشيخ من شيوخ بخاري) والسبب في ذلك أن عمامة الشيخ كانت متواضعة تشبه عمائم البخاريين، كما أنه لم يقدم نفسه للملك على أنه مفتي المنطقة بل اكتفى بالسلام عليه فحسب، وهذا شأنه دائماً في كل اجتماع، إذ لا يعهد عنه مطلقاً تشوقه للظهور، أو حبه للثناء.

الوعي والتسامح:

كان الشيخ واعياً تماماً لما يدور حوله، ففي الوقت الذي كان يرد خلال دروسه العلمية على شبهات الشيوعيين التي كانوا يثيرونها حول الدين، كانت يده السمحة ممدودة لمن يشاركونه في العيش في كنف الوطن من نصارى قطنا وما جاورها.

كانت الدعوة للشيوعية قد ذرت بقرنها في قطنا، وكان إخوان الشيخ وتلاميذه ينقلون إليه ما يتداوله أصحابها من أفكار، فكان يحثهم على الرد عليهم وعدم السكوت عما يثيرونه من شكوك حول الإيمان بالله سبحانه، مبيناً لهم حقائق الإسلام ومبادئه السمحة في إنصاف المظلومين والتقريب بين الطبقات وتحقيق العدالة الاجتماعية.

وفي نفس الوقت كانت سماحة الشيخ مع النصاري جلية لا غبار عليها، فكان يزورهم في بعض مناسباتهم، ويستقبل من يزوره

منهم بدون غضاضة. ولم يكن يرضى بإلحاق الأذى بأي منهم ولو بالكلام. وهذا ما أكسبه احترامهم الكبير، وقد لمست هذا بنفسي من خلال احترامهم لذرية الشيخ حتى بعد وفاته[1]. ولعل من الأدلة على ذلك أيضاً: أنه لم تحدث أي مشكلة بين المسلمين والنصارى خلال وجود الشيخ في قطنا، وقد سار خليفته في الفتوى والدي الشيخ عبد الله على منواله في هذا التسامح؛ مما اكسب قطنا سمعة طيبة في هذا المجال والحمد لله.

إسهامه في قضايا الأمة:

لم يكن الشيخ يعيش لنفسه بل كان يعيش لأمته، يفرح لفرحها، ويحزن لألمها، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر – لا يدع فرصة تتاح له إلا وينطلق معلماً ومنبهاً وواعظاً. ولعل من أبرز ما يشهد لهذا: مشاركته الفعالة في رابطة علماء دمشق، فقد كان نائباً للرئيس، وكان حريصاً على حضور اجتماعاتها والمشاركة في أنشطتها، فقد كانت الرابطة مستقلة تماماً عن أي هيئة أو حزب، وكان هدفها الأساس توحيد كلمة العلماء فيما يخص قضايا المسلمين وما يواجهونه من مشكلات، فكانت لسان المسلمين الحر في كل مناسبة، وكان ممثلوها يفدون على أولي الأمر مرشدين وناصحين لا تأخذهم في الله لومة لائم، وقد ذكرت بعض المواقف التي شارك فيها الشيخ في هذا الكتاب.

---

(١) كلفت بتدريس مادة التربية الإسلامية بقرية: (عرنة) التابعة لقضاء قطنا ١٩٧٢ تقريباً، وكان مديرها نصرانياً، وعندما عرف أني حفيد الشيخ أثنى على جدي كثيراً، وكانت معاملته لي معاملة كريمة جداً بسبب ذلك.

وقد أشرت إلى مشاركة الشيخ في مؤتمر العلماء الأول الذي عقد في دمشق ١٨٣٨م وإني أهيب بالباحثين المتلهفين لنشر حقائق التاريخ أن يقوم أحدهم بدراسة تاريخية لرابطة علماء دمشق، وكذلك لمؤتمر العلماء المذكور؛ وذلك لتعريف الأجيال الناشئة في سورية على جهود علمائها في فترة حالكة من تاريخها المعاصر.

لقد كان الشيخ مفتياً لقضاء قطنا يوم جاء المستعمر الفرنسي حاطاً رحاله[١]. وكان مقر الحاكم الفرنسي بجوار منزله، فما أوهن هذا من عزيمة الشيخ، بل مضى في طريقه آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر لا يخاف في الله لومة لائم. فلم يصل إلى علمه ظلم تقترفه قوات الاحتلال – سواء أكان من فرد أو مجموعة – إلا ويسعى عند الحاكم العسكري لإزالته فوراً. بل كان منزله هو المكان الذي يأوي إليه الناس أحيانا حين تلم بهم مصيبة خطيرة جراء هذا الاحتلال الغاشم[٢].

ومما يبين اهتمامه بقضايا أمته أيضاً: أنه لما حدثت مشكلة فلسطين استغل الشيخ هذا الحدث الجلل مبيناً لتلاميذه وإخوانه من يحضرون دروسه ومواعظه ان السبيل الصحيح لإحراز النصر على العدو يكمن في رجوع المسلمين إلى دينهم رجوعاً شاملاً وحقيقياً، ولما اجتمع المتطوعون من سورية لنجدة إخوانهم في فلسطين في مكان يسمى

(١) انتقل الشيخ إلى قطنا عام ١٩١١م واحتل المستعمر الفرنسي سوربة مابين الأعوام ١٩٢٠ – ١٩٤٦م.

(٢) كما حصل حين اشتبكت قوات الإنكليز مع الفرنسيين الموالين لحكومة فيشي الموالية للألمان فوقعت قطنا في مرمى المدفعية والطيران من كلا الجانبين.

(السوجة) قرب قطنا تمهيداً للذهاب إلى فلسطين لنجدة إخوانهم. وجه الشيخ دعوة لقائد الفوج الثاني من المتطوعين الشيخ مصطفى السباعي رحمه الله ليلقي خطبة الجمعة في مسجده الجامع العمري واستجاب الشيخ مصطفى وكانت خطبة مشهورة ألقاها بلباس الميدان وقد اجهش الحاضرون خلالها بالبكاء حسرة على ما حلَّ بإخوانهم في فلسطين، وبعدها دعاه الشيخ إلى منزله مكرماً ومشجعاً له ولإخوانه المجاهدين ليمضوا قدماً في مسعاهم المبارك لصد المؤامرة الصهيونية، فكان أن سجل التاريخ إسهام الثلة المباركة من مجاهدي سورية في حماية مدينة القدس الشريفة من السقوط في أيدي عصابات صهيون[1].

(١) انظر (مصطفى السباعي الداعية المجدد) تأليف الدكتور: عدنان زرزور ص ٢٠٦ – ٢١١ الطبعة الأولى ٢٠٠٠م.

إلتقطت هذه الصورة أمام المجلس النيابي بدمشق بمناسبة الاجتماع العام الذي دعى إليه علماء دمشق لنصرة إخوانهم في الجزائر أثناء الاحتلال الفرنسي لها. ويظهر الشيخ إبراهيم جالسا إلى يمين الشيخ أبي الخير الميداني. وخطيب الجمهور يوم ذالك هو الشيخ على الطنطاوي (في الوسط ممسكا بالميكرفون)

هيبته رحمه الله:

عرف الشيخ بهيبة فريدة، وهذا – والله أعلم – بسبب صدقة مع الله سبحانه. فكانت النساء في قطنا يتوارين في بيوتهن إذا مر حياء منه، وغالبا ما يسرع أصحاب الدكاكين المجاورة للمسجد بمرافقته حين يرونه قادما إلى المسجد، وكان من عاداته الحسنة التي سنها في قطنا أن إذا ثبت هلال رمضان أو عيد الفطر فإنه يصحب المصلين بعد صلاة العشاء ليسيروا مكبرين في الشارع الرئيسي؛ إظهار لشعيرة من شعائر الإسلام (التكبير) وعندما يمر بالمقاهي يقف يسيراً حاثاً من فيها من المسلمين على الالتحاق بهم – وكأنه يقول لهم بلسان حاله: (كفاكم غفلة فقد حان موسم التوبة والإنابة)، فلا يبقى مسلم إلا ويلتحق به. بل ربما أغلق المقهى أبوابه استجابة لنداء الشيخ. وقد حافظ والدي الشيخ عبد الله على هذه السنة الحسنة في قطنا والحمد لله.

وأرى أنه كان لهيبته أثر في تقديمه للحديث باسم وفود العلماء غالباً عندما كانت تذهب لأولي الأمر لمناقشة الأمور المتعلقة بمصالح المسلمين.

إهتمامه بأمور الدعوة:

أعطى الشيخ رحمه الله إهتماما كبيرا للقرى التابعة لقضاء قطنا، وقد كانت كثيرة حتى شملت قرية الكسوة وجباتا الخشب آنذاك.

فكان يزورها باستمرار رغم الصعوبات الكبيرة في المواصلات.[1] ويختار لها الأئمة الأكفاء ويشد من أزرهم – رغم انعدام الدعم المالي من الأوقاف. إذ كان المزارعون – في الغالب – يعطون شيئاً من محصولهم السنوي للإمام ليستعين به. وقد شملت جولاته بعض القرى في البقاع الغربي وهي تابعة للجمهورية اللبنانية، وبخاصة قرية خربة روحا.

وقد تتلمذ عدد من طلاب العلم من هذه القرى على يديه رغم تباينهم في الأخذ عنه قلة وكثرة. وسوف أتي على ذكرهم عند الحديث عن تلاميذ الشيخ.

إلتقطت هذه الصورة للشيخ إبراهيم في زيارة القارئ المصري عبد الفتاح الشعشاعي عندما قدم لدمشق بفندق سميراميس. ويبدو في الصورة أيضا ابنه وهو القارئ: محمد الشعشاعي، وإلى يساره والدي الشيخ عبد الله وهو منحن يصلح ثيابه. وإلى يمين الشيخ عبد الفتاح الشعشاعي يبدو عمي الكبير الشيخ محمد بدر الدين رحمهم الله جميعا.

(١) تابع والدي رحمه الله سنة والده في هذا، وكنت في صحبته أحياناً. ولا زلت أذكر إنتقالنا من قرية حينه إلى قرية دربل والواقعة على سفح جبل الشيخ عن طريق الدواب؛ لعدم وجود وسيلة أخرى للركوب في ذلك الوقت.

المبحث الخامس

أساليب التعليم والتوجيه والفتوى عند الشيخ

كان الشيخ رحمه الله إلى جانب علمه فصيحاً بليغاً، وقد آتاه الله صدق اللهجة، فكان مستمعوه يشعرون بأنهم أمام عالم غيور ناصح، لا يهمه تنميق الكلام وإظهار البراعة في الحديث، وإنما يتحدث بصدق وعلى السليقة، وجل همه إيصال رسالته إلى العقول والقلوب، ولاشك بأن لحال الشيخ مع ربه أبلغ الأثر وأعظمه، فهو كان كما قال الشيخ علي الطنطاوي عن أُستاذه الشيخ أبي الخير الميداني: (يُعلم بحاله أكثر من مقاله) علماً بأن هذا العالم الجليل صديق حميم للشيخ إبراهيم، وكان شيخهما في السلوك واحداً هو الشيخ عيسى الكردي رحمه الله[1].

لم يكن الشيخ يفصل بين التعليم والتوجيه، بل كان يقرن بينهما بأسلوب موفق غاية التوفيق، اتبع الشيخ في التعليم والتوجيه الطرق ذاتها التي اتبعها أقرانه من العلماء، فكان يعقد حلقات العلم والوعظ في المسجد، وقد تميز بالجمع بين العلم والوعظ وعدم الفصل بينهما في جميع حلقاته ولقاءاته، أنه كان مهتماً بتهذيب النفوس قبل العقول.

لقد فتح الله على الشيخ بطريقة جديدة فريدة في مجال الدعوة، فإضافة إلى التوجيه الذي كان زواره في منزله بقطنا يحظون به،

---

(١) عثرت – وأنا فتى – في مكتبة والدي التي ورث أكثرها عن جدي بطاقة تهنئة بالعيد، بعثها الشيخ أبو الخير الميداني إلى جدي، وجاء في مقدمتها: إلى أخي الشيخ إبراهيم الغلاييني وهبه الله مقام الخلة.. فانظر إلى هذه المحبة الإيمانية ما أجملها.

فإنه عندما كان يحل ضيفاً على بعض أحبابه في دمشق أو غيرها من المحافظات[1] ويأتيه الزوار إلى مكان إقامته يستثمر هذا في سبيل الدعوة. فتراه لا يتوانى في التعليم والتوجيه والوعظ، وغالبا ماترى الضيوف يتزاحمون على الدار التي يحل بها ضيفاً، محبة بالشيخ ورغبة في سماع كلماته الصادقة المؤثرة ذات الأسلوب المميز مما يترك أثرا عجيبا في نفوس مستمعيه[2].

وكان لحي (قبر عاتكة) العريق في دمشق نصيب الأسد في هذه اللقاءات المثمرة، حيث كان الشيخ يتوجه للحاضرين واعظاً ومعلماً.

ويذكر لي والدي إن أهل هذا الحي طلبوا من الشيخ أن يختار لهم من علماء دمشق من يلوذون به عند ذهابه إلى قطنا؛ لأنهم يشعرون بالفراغ خلال تلك الفترة، فأشار عليهم بالتزام الشيخ: (عبدالكريم الرفاعي) رحمه الله، ولم يكن مشهوراً في ذلك الوقت، وقد كانت فراسته في مكانها، فإذا بهذا الشيخ الهادئ المتواضع يصبح فيما بعد من أشهر علماء دمشق، ورائداً لطلاب العلم لإخلاصه ونجاحه المميز في استقطاب طلبة العلم.

---

(١) كانت للشيخ رحمه الله جولات دعوية على بعض المدن السورية الكبرى، وبخاصة حلب وحماه، وكما كانت له جولات لقرى البقاع في لبنان، مثل خربة روحا – وكانت أكثر القرى اللبنانية حظوة عند الشيخ – والقرعون، وجب جنين، وكفر دينس، ومدوخا، وغيرها.

(٢) من الأمثلة على هذا أنني عندما كنت في الخدمة الإلزامية بالجيش السوري التقيت عقيداً من حي الميدان، وذكر لي أنه كان حريصاً في يفاعته على رؤية الشيخ والإستماع إلى كلماته، لذا كان يسأل عن مكان إقامته كلما أتى لحي الميدان.

أما منهجه في الفتوى فكان لا يكتفي بالإجابة على سؤال المستفتي، بل يستغل الفرصة لتوجيه النصح والإرشاد لهذا المستفتي، وربما نبهه إلى ماوقع فيه من تقصير ديني أو تربوي.

أما في مسائل الطلاق فكان لايكتفي بالسماع من الزوج فحسب، بل يطلب حضور الزوجة؛ ليسمع منها أيضاً، وهذا هو الصواب بعينه؛ لأن الزوج ربما نسي ما قال في لحظات غضبه، ولربما أخفى الحقيقة أو بعضها إذا لم تكن عنده التقوى الكافية.

أما بالنسبة للمذهب الذي كان يفتي بموجبه فإننا قد عرفنا عند الحديث عن شيوخ الشيخ بأنهم كانوا حنفيين، وأنه درس المذهب الحنفي على أيديهم لسنوات عديدة، ولكنه عندما انتقل إلى قطنا ووجد أهلها يتبعون المذهب الشافعي عكف على بعض كتب الشافعية يدرسها[1].

واتبع المذهب الشافعي في صلاته؛ تماشياً مع البيئة الجديدة، وهذا يدل على سعة أفقه ومرونته رحمه الله، وعدم تعصبه للمذهب الذي نشأ عليه، فإذا كان غير متعصباً لمذهبه في العبادة فأحرى به ألا يكون متعصباً له في الفتيا.

أنموذج من فتاويه:

أرسل المفتي العام لسورية الشيخ الطبيب: أبو اليسر عابدين رحمه الله رسالة إلى عدد من العلماء – كان من ضمنهم مفتي مصر

(١) حدثني والدي بأن مراجعه العلمية في هذا كانت حاشية الباجوري على متن أبي شجاع.

الشيخ محمد بخيت المطيعي والمترجم له – يستشيرهم في حكم استخدام الإبرة العضلية أو الوريدية للصائم. وحكم دهن المريض بعض قروح جسمه بدهن أو دواء مائع أو جامد بقصد العلاج من مرض هل يفطر أم لا؟

جاء جواب الشيخ ابراهيم على الرسالة المذكورة على النحو التالي:

(بعد حمده تعالى، والاستمداد من حسن عنايته. أقول: إيصال الدواء إلى دورة الدم بطريق الإبرة، الظاهر أن ذلك ليس بالمفطرات للصائم كما يُفهم من قوله السادة الحنفية بعدم إفطار الاكتحال والقطرة ولو وجد طعم ذلك في حلقه، وأيضاً لو تلفف بالثوب المبلل أو نزل الماء ووجد برودة الماء في جوفه.. قالوا: لأن ذلك من طريق المسام، ولا يعتبر ذلك مفطراً. قالوا في الأَمَة – وهي الجراحة التي وصلت إلى أم الدماغ، وهي الجلدة التي تحوي الدماغ تحت الجمجمة –: إن الدواء إذا كان مائعاً ودووي به الأَمَة وصل إلى الدماغ، وهناك منفذ أصلي منفتح إلى الجوف لمداواتها: مفطر كالجائفة. فكل ذلك مفيد بالصراحة.

إن العبرة بالإفطار ما وصل إلى الجوف من المنافذ الأصلية، ولم يعتبروا غيرها كالنافذ من طريق المسام مالم يكن منفذاً أصلياً،أي ظاهراً محسوساً غير دقيق جداً كالمسام. ومع هذا لا ينبغي أن تؤخذ الإبرة التي ليست للتداوي. بل يقصد منها التغذي نهار رمضان؛ لئلا يجد ألم الجوع، لا لأنها مفطرة؛ بل لكونها تهدم حكمة الصيام المؤدب للنفس، والمذكر بالجياع؛ للتراحم والمواساة لهم، فلا تخلو من نوع كراهة والله أعلم.

وأما سؤالكم عن دهن الجسد بدهن أو دواء أو اليدين بذلك. فما كان من هذا النوع – أيضاً – فلا اثر له في الفطر بالأولىْ والله أعلم). ووقع الشيخ بذيل فتواه هكذا: (من الفقير إليه تعالى مفتي قطنا)[1].

نلحظ من فتواه رحمه الله دقته وإحاطته بجوانب المسألة. فقد فرق بين إبرة الدواء وإبرة الغذاء، فأجاز الأولى، وقال عن الثانية: لا ينبغي أن تؤخذ، لا لأنها مفطرة؛ بل لكونها تهدم حكمة الصيام فلا تخلو من نوع كراهة.

(١) نقلا من كتاب (الصيام بين الشريعة والطب) للشيخ الطبيب: أبو اليس عابدين: ١٦٢ – ١٦٣.

المبحث السادس

نماذج من كتاباته

لم يكن الشيخ يرى نفسه أهلا للتأليف، وكان هذا شأن أغلب علماء عصره الذين سرت بينهم المقولة المعروفة: (ماترك الأوائل للأواخر شيئاً) وقد خسرنا الكثير بسبب هذه الفكرة.

وها أنا ذا أقدم للقارئ الكريم نماذج من كتابات الشيخ وأسلوبه في التوجيه ليتمكن من الإطلاع على هذا الأسلوب بصورة مباشرة.

ومع الأسف فإن الشيخ لم يترك لنا سوى رسالة مقتضبة وجهها لأهل القرى، وبعض الرسائل الشخصية التي أرسلها لأولاده وقد ضاع معظمها، لكني حصلت على واحدة منها كانت بحوزة عمي الشيخ سعد الدين رحمه الله، وقد طلبت من والدي حفظه الله العثور على بعض فتاويه فلم يجد منها مكتوباً إلا المسائل الفرضية، وهذه لا يفقهها إلا المختصون بهذا الفن الصعب المنال.

لذا سأذكر هنا رسالته: (القول الموجز المبين) ثم أتبعها برسالته الشخصية لابنه سعد الدين عندما كان طالباً في الأزهر الشريف:

١ – رسالته (القول الموجز المبين فيما اختصره رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمور الدين):

والآن لنقرأ هذه الرسالة التي دفعه إلى كتابتها الغيرة على دين الله؛ لأنه علم من خلال احتكاكه بأهل القرى التابعة لقطنا انتشار عادة

مخالفة للشريعة وهي نكاح الشغار[1].

كتب رحمه الله قائلاً:

الحمد لله العليم الحكيم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ينبوع العلم ورافع مناره، وعلى آله وصحبه الذين اقتبسوه منه اختصار النصيحة الجامعة، وعلينا معهم ورزقنا حبهم.

وبعد... فإن العلم نور مستبين والجهل عَميً وضلال مبين، وأن أعمى العمى الضلالة بعد الهدى، وإنه كان يدور في خلدي أن أكتب صحيفة أذكّر بها أهل القرى واحذّرهم فيها من عقود نكاح الشغار، وما يترتب عليها من المفاسد؛ وذلك لما أراجع فيه من مشاكلاته المحرجة الناشئة من المخالفة لهدي النبي صلى الله عليه وسلم، نور الهداية الحكيمة، ثم ذكرت أن هناك أمراً أعظم خطراً من ذلك. وهو جهل القرى بمهمات الدين، لذا عزمت بعد توكلي على الله سبحانه وتفويضي إليه على ذكر ما أوجزه لنا الحبيب الأعظم من جميل النصح وإجمال أمور الدين، وفساد العقود النكاحية التي يكون غايتها ويلات على أربابها، ومثلها على الذين يرضون بهذا ويباشرون بذلك من أئمة جهلاء وخطباء متآكلين وأولياء غرّ جاهلين، لا يلحظون إلا توهمهم منفعة خاصة يتخيلونها تعود عليهم بخسارات وفتن، وشهود مهمتهم أكل

(١) نكاح الشغار هو أن يزوج الرجل موليته: بنته أو أخته، على أن ينكحه الآخر موليته، ولا صداق بينهما إلا بضع هذه ببضع الأخرى، وهو باطل عند جمهور العلماء، فإن وقع فسخ النكاح عندهم، سواء قبل الدخول أو بعده. انظر الفقه الإسلامي وأدلته للدكتور: وهبه الزحيلي ٧/١١٦ - ١١٧ (المؤلف).

الحلاوي من غير روية ولا نظر في عواقب الأمور.

ولهذا وذاك أبين لإخواننا من أهل القرى على ذاك الوجه المختصر مابيّنه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لأمته بقوله الموجز الفصل: (الدين النصيحة قلنا لمن؟ قال: لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم)[1].

النصيحة لله:

فالنصيحة لله سبحانه: أن ننصح أنفسنا ومن استرعانا سبحانه من ولد وغيرهما من رعية أمام حقوقه سبحانه من الإكثار من ذكره أكثر من كل مذكور، وأن نحبه أكثر من كل محبوب، محبةً تجعلنا نطيعه حق طاعته؛ لأن المرء لمن يحب مطيع، ولأن وجودنا ووجود الخلق كلهم بإيجاده، ومظهر وُجُوده وَجَودِه.

النصيحة لكتاب الله:

والنصيحة لكتابه سبحانه أن نكثر تلاوته، وأن نحفظه إن تسنى لنا ذلك. وهو أحرى بنا؛ نصحاً لأنفسنا أمام حق حرمة هذا الكتاب العظيم.

وأن ننصح أولادنا وأزواجنا ومن تحت رعايتنا بذلك، وأن نحب اللغة العربية؛ حيث إنها لغته وفوق كل لغة. وأن نحكم أحكامه وشرعته،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه طرف حديث رقم ٥٥ من رواية تميم الداري رضي الله عنه ١/ ٧٤.

وان نعتقد أن ذلك هو الحكم الرباني الذي يجب أن يتبع دون غيره من قوانين الخلق أجمع.

النصيحة لرسوله:

والنصيحة لرسوله صلى الله عليه وسلم أن نحبه عليه الصلاة والسلام وأن نحببه لأولادنا وعيالنا ومن استرعانا ربنا من رعيته فوق محبة الآباء والأمهات والرؤساء والخلق أجمعين حتى أنفسنا التي بين جنبينا، وأن نتبع سنته وهديه وسيرته خطوة فخطوة، وأن نقتدي بأحبابه الصادقين المتبعين لجنابه العظيم صلى الله عليه وسلم وأن نكثر من الصلوات والتسليمات عليه خصوصاً في الأوقات التي سنَّها لذلك، وأن نمرن أولادنا ورعايانا على ذلك.

النصيحة لأئمة المسلمين:

والنصيحة لأئمة المسلمين، وهم العلماء العاملون، والأمراء العادلون وأن نكون أزرهم وعوناً لهم في سائر الشؤون بعد ثبوت ماسلف من تلك النعوت العاملة والحالة الكاملة.

النصيحة لعامة المسلمين:

والنصيحة لعامة المسلمين أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك، وأن تكره له ما تكره لنفسك، وأن تذر موالاة أعداء الله تعالى، ولا تؤثرها على موالاة أخيك المسلم؛ لأن أخاك أخاك وإن جفاك، وإنَّ عدوك عدوك وإن والاك، فكيف بعدو ربك ونبيك وقرآنك وسيرك كله.

فإن أظهر لك انه يحب شيئاً من ذلك فهو محض كذب ونفاق يضمه إلى كفره وعدائه الصميم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾[1].

ومن حق أخيك المسلم: أن تسعى بما يمكنك من مسعى وراء مايوصل له حاجة أو منفعة، ولو بنيتك الصادقة التي يعلمها الله سبحانه وتعالى من قلبك إن عجزت عن معونته بيدك أو بلسانك أو بخطواتك أو بقلمك.

والله الموفق لارب غيره، ولا خير إلا خيره، وهو ولي التوفيقْ وبيده أزمة التحقيق، وهو حسبنا ونعم الوكيل، نعم المولى ونعم النصير.

حديث جبريل:

وأذكّر نفسي وإخواني – أيضاً – بحديث جبريل عليه السلام الشهير الذي يرويه لنا سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو أنه أتاهم بصورة رجل سائل متعلم ومصدق، فسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن أمور وجبريل يصدِّق، فعند تعجبهم من حاله – لأن السائل المستعلم ينافي حاله حال المصدق – فعندها يبَّين لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه جبريل، وأنه أتاهم يعلِّمهم أمر دينهم، فكان سؤاله عن الإسلام والإيمان والإحسان والساعة.

وكان بتلك الكيفية التي هي بصورة سؤال وجواب التي هي من

(١) سورة الممتحنة: آية ١.

أعظم رمز للآداب التي هي روح الدين، فكان جوابه عن الإسلام أنه الشهادتان، وإقامة الصلوات الخمس، وأداء الزكاة، وصوم رمضان، والحج على من استطاع إليه سبيلاً. فهي دعائم الإسلام وقواعده العملية التي من استقام عليها، وتمرَّن لديها بإخلاص وصدق فتحت له كل عمل برّ وتقوى، وأنّ الإيمان الذي هو التصديق الجازم بالجنان أي بالقلب[1] يتعلق بستة أركان وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره من الله تعالى، فمن شكَّ أو ارتاب بركن منها كان ذلك كفراً.

الإيمان بالله عز وجل:

فالإيمان بالله عز وجل: التصديق بوجوده سبحانه وقدمه وبقائه ومخالفته لأوصاف خلقه، وقيامه تعالى بنفسه، والوحدانية، وباقي صفاته العشرين الشهيرة وهي: القدرة، الإرادة والعلم والحياة والسمع والبصر والكلام، وكونه سبحانه قادراً ومريداً وعالماً وحيًّاً وسميعاً وبصيراً ومتكلماً.

ويلزم من وجود اعتقاد هذه الصفات العشرين اعتقاد استحالة أضدادها عليه سبحانه. والجائز في حقه سبحانه صفة واحدة وهي: فعل كل ممكن أو تركه.

---

(١) هذا هو تعريف السادة الحنفية للإيمان، وذهب الجمهور إلى أن الإيمان: نطق باللسان وتصديق بالجنان وعمل بالأركان، ولكن الأحناف يعتبرون العمل من لوازم الإيمان وبهذا يكون العمل داخل ضمناً على وجه الإجمال. (المؤلف).

وإن كل الكمالات له سبحانه هي أوصافه سبحانه، والنقص مستحيل عليه.

الإيمان بالملائكة:

والإيمان بالملائكة.. والتصديق بوجودهم، وهم عباد الله الذين ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[1] وأنهم نورانيون، عقل بلا شهوة لذا يروننا ولا نراهم كالجن، إلا أن الجن عنصرهم من مارج من نار، وهو لهبها الصافي.

وأن الملائكة طوائف مسخّرون بأمره سبحانه، منهم من: جعلهم لأنواع العبادات، منهم: المسبح، ومنهم: الحامد ليس إلا. وهكذا كل فريق مختص بنوع من أنواع الطاقة والذكر. ومنهم: طوائف سخرهم لأعمال العباد ومنافعهم كسوق السحب، ونزول الأمطار، وتربية الزرع وحفظه، كل طائفة لنوع من ذلك.

ومن هنا ورد عنه صلى الله عليه وسلم قوله: (أكرمو الخبز فإنه ماوضع رغيف أمام أحدكم حتى فرغ منه ثلاثمائة وستون صانعاً، أولهم ميكائيل وآخرهم الخباز).[2]

---

(١) سورة التحريم: الآية ٦.

(٢) لم أجده بهذا اللفظ وانما وجدته في المعجم الكبير ٢٢/ ٢٣٥من رواية سكينة: ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (أكرمو الخبز فان الله أكرمه ، فمن أكرم الخبز أكرمه) المستدرك علي الصحيحين للحاكم النيسابوري ٤/ ٣٦وفي رواية أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أكرمو الخبز ، وإن كرامة الخبز أن لاينتظر به) قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ومعنى [لا ينتظر به: أنه يؤكل إذا حضر تكريما له، بدون انتظار طعام آخر يكون معه (المؤلف).

وجعل المولى سبحانه لهم قوة من قوته، حتى أن الواحد منهم لو أراد أن يقتلع الجبال لفعل، أو يقلب مدناً على أهلها لأمكنه ذلك،وأنهم لايوصفون بذكورة ولاأنوثة، غذاؤهم وقوتهم وانعاشهم ذكر الله تعالى وتسبيحه وتصديقه ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴾.[1]

الإيمان بالكتب :

والإيمان بالكتب: أن نؤمن بأن الله سبحانه أنزل كتباً على رسله، وهي كلامه القديم، أنزله بلغة الأنبياء الذين أنزلت عليهم الكتب بلغة أقوامهم ولسانهم، ليبلغوهم شرائع ربهم وأحكامه وحكمه، ومايتفعهم في عاجلهم وآجلهم ودنياهم وآخرتهم .وهي الكتب الأربعة الأخيرة .

التوراة على سيدنا موسى عليه السلام، والزبور على سيدنا داود عليه السلام، والأنجيل على سيدنا عيسى عليه السلام، والقران على سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وعليهم وعلى الهم وأصحابهم أجمعين، ومائة صحيفة قبلها ،وهي ستون على سيدنا شيث عليه السلام ،وثلاثون على سيدنا إبراهيم عليه السلام وعشرة على سيدنا موسى عليه السلام قبل التوراة .

الإيمان بالرسل :

والإيمان برسله سبحانه وتعالى :بأن نصدق بأن الله تعالى رسلاً من البشر أوحى إليهم بشرع ليعمل أحدهم به ويبلغه امته، وهو إنسان

(١) سورة الأنبياء : الايه ٢٠.

بشر، ولكن الله عزّ وجلّ وفقه توفيقاً خاصاً، لأن يكون في مزيد من قرب من الرحمن سبحانه، معصوم – بعصمة اللّه – عن الكبائر من الذنوب وصغائرها مصطفى مجتبى باجتباء اللّه سبحانه، فهؤلاء الرسل أرسلهم الحق للخلق رحمة . فمن أراد اللّه به السعادة أجابهم، ومن أريد به غير ذلك تخلف عن دعوتهم، أولهم آدم عليه السلام، وآخرهم نبينا محمد صلى اللّه عليه وسلم، وختمت به الرسالة .

ويوجد أنبياء غير مرسلين، والنبي من أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه للخلق بل ليعمل به فقط، وعدد الجميع مائة الف نبي وأربع وعشرون ألف نبي، منهم ثلاثمائة وبضعة عشر رسولاً، عدد أهل بدر، والرسول نبي مرسل، فكل رسول نبي ولاعكس.

وبعده أصحابه الكرام وآل بيته العظام خلفاؤه ،ومن بعدهم أتباعهم بإحسان . جعلنا اللّه من أتباعه بمنه وفضله العظيم. آمين.

الإيمان باليوم الاخر :

وأما الإيمان باليوم الاخر: فهو التصديق الجازم بأن الله عزّ وجلّ بعد انقراض الدنيا يعيدنا ويبعثنا في يوم آخر غير يومنا هذا، وهو يوم المعاد يوم الحشر والنشور، الذي ترجمه القران الكريم، وفصّلت السنة المباركة كذلك شؤوناً من شأنه، وقرن رسول الله صلى الله عليه وسلم في كثير من أحاديثه الشريفة الإيمان به بالإيمان بالله تعالى فقال: (من كان يؤمن بالله واليوم الاخر فليعمل كذا).

الإيمان بالقضاء والقدر :

وأما الإيمان بالقضاء والقدر: فهو أن تصدق بأنّ الله عزّ وجلّ قضى قضاءه بالأزل بما هو كائن في الأبد ، وقدر ذلك كله تقديراً حكيماً، وأنفذ كلاً في وقته وأوانه، فلا تقديم ولاتأخير، ولاتغيير ولا تبديل، ولذا قالو: (الأزل مرآة الأبد، والأبد حكاية الأزل) اللهم، لطفاً بما قضيت وقدرت ياكريم وياالطيف وياعليم وياقدير .

فالإيمان بهذه الأركان الستة محتم على كل مكلف بلا ريب ولاتردد إيماناً جازماً ،وتصديقاً تاماً، اللهم، إنا نسألك التوفيق لكمال الإيمان بمنك يارحمن .

الإحسان :

وأما الإحسان: فهو مراقبة الله سبحانه كأنك تراه. وهذا ثمرة الإيمان بما سلف .وثمرة العمل بمقتضى ماذكر .وهذه المراقبة وتلك الملاحظة هي من أخص ماعليه القوم من أهل الإيمان الصادق وذوي الإيقان .

والاستقامة على المراقبة والحياء منه سبحانه كما ورد : (استحي من الله استحياءك من رجلين من صالحي عشيرتك)[1]. ينتج ثمرة كريمة، هي: الأخلاق الفاضلة في الدين .وهي روح الدين وخبرة العقل؛ لذا ورد: (ثلاث من لم يكن فيه واحدة منهن كان الكلب خيراً منه :ورع

(١) هو طرف حديث رقم ٥٧٥ ذكره في كنز العمال من رواية أبي أمامة رضي الله عنه .

يحجزه عن محارم الله تعالى ،وحسن خلق يعايش به الناس، وحلم يردّ به جهل الجاهل)[1].

علم الساعة :

وأما الساعة: فلم يجب عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدنا جبريل الأمين عليه السلام، بل بقيت على التجهيل، وفي الديانات القديمة كذلك.

كما قال ربنا لموسى عليه السلام فيما قصّه علينا من قصته: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾[2].

فإخفاؤها حكمة عظيمة من لدن حكيم خبير. والساعة صغرى وكبرى: فالصغرى: نهاية أجل كل منّا؛ لذا قالوا : (إذا مات المرء قامت قيامته) والكبرى: هي نهاية يوم الدنيا بأسرها، وذلك عند النفخة الأولى، فجهل رسول الله تعيينها في الجواب لجبريل الأمين عليهما أفضل الصلاة وأتم التسليم بقوله: (ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، ولكن أنبئك عن إماراتها، وهي علائمها)، فذكر له علامتين من العلائم الصغرى لها وهي كثيرة، وهاتان العلامتان من أخصّها وأكثرها فتنة .

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ وإنما وجدته عند الحافظ الطبراني في المعجم الأوسط بتحقيق الدكتور محمود الطحان تحت رقم ٤٨٤ جزء٥ صفحة ٤٣٠ من رواية علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ثلاث من لم يكن فيه فليس مني، ولا من الله ، قيل: وماهنّ ؟ قال :حلم يردّ به جهل جاهل ، أو حسن خلق يعايش به الناس، أو ورع يحجزه عن معاصي الله.

(٢) سورة طه:١٥.

أولاهما: ترك البر من الأبناء للأباء، والبنات للأمهات، وكثرة العقوق وتفشيه، حتى ترى البنت أنها سيدة أمها، والوليد يرى كذلك أنه سيد أبيه.

وثانيتهما: الافتخار في البناء والتطاول فيه حتى من الطبقات التي لم تكن تألفه، كأهل الأخبية وبيوت الشعر، وعدا هاتين العلامتين علامات كثيرة ظهر أكثرها.

هذا ماكان من رسالة جبريل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم على طريقة السؤال والجواب التي هي من أسمى الآداب، وماطوى من وراء ذلك من تعليم الأمة أمور دينها.

فإذا فكر المفكّرون في هذه الأمور الأربعة من قواعد الإسلام وأركان الإيمان وحسن آداب الإحسان مع حسن الاستقامة والعلم والأدب والأخلاق. وعدم البحث عن الساعة مع الاشتغال بما ينفعنا بعدها؛ فرقاً وخشية من بغتتها رجعوا إلى ماذكر الفقهاء من أداب وشرائط تلك القواعد الإسلامية، وماذكره أهل الإحسان والأخلاق العالية من مراقبة ربّ البرية، وماكان من الحكمة العالية في السكوت عن تعيين الساعة. والمرجع في هذا كله هم العلماء العاملون، والفقهاء المخلصون، أهل المعرفة الورعون، مع تدبر أشراط الساعة. فإذا كان كذلك كان التحقق بالدين وأموره.

ثم أرجع إلى ماكان السبب في هذه الكلمة المذكرة لي ولإخواني الموفقين، زادني الله وإياهم ثباتاً وتوفيقاً، وهو ماأسلفته في المقدمة من مشاكل عقد الشغار: فقد ورد في النهي عنه والتحذير منه كما تكررت

الروايات في السنّة في هذا الباب؛ مما جعل أكثر المجتهدين ينصون على حرمة هذا العقد، بل على بطلانه من اصله، فمن الأحاديث: قوله صلى الله عليه وسلم: (لاشغار في الإسلام)[1] وهو بكسر الشين: (العقد الخالي من المهر) ويسمى في القرى بالمقايضة بنتاً ببنت بلا تسمية مهر.

هذه حقيقته، وربما ذكروا لكلٍ عقداً ومهراً مستقلاً، فحيث أنهما في مقاولة واحدة فهو توسل إلى العقد المنهي عنه .

وحيث إني المرجع في مشاكل القرى أتاني كثير من أهل تلك القضايا المحرجة المشعبة من جرّاء ذلك العقد. ومن جهة أن أهل القرى لايفهمون من هذا العقد إلا ذاك النكاح المنهي عنه، بحيث لو طلقت واحدة منهما يطالب ولي الأخرى بفسخ عقد موليته وطلاقها، ومن جهة ثانية لايرى كل واحد منهما أن المهر الذي ذكر لزوجته يتعين عليه دفعه ،وانه قد عقد عقداً مستقلاً على زوجته بمهر مستقل، بل يسيرون على عوائد جاهلية قديمة بحيث يشتري لها بعض أمتعة، وربما دفع لها بعض وريقات، كما أن الآخر يشتري لزوجته كذلك، ويدفع لها مثل رفيقتها .

والمهور إنما ذكرت احتيالا وتوسلا غير مؤداة، فلذا عند شقاق إحدى الزوجتين تقع المصيبة على رأس الثانية بلا ذنب.

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه ٢/ ١٠٣٤من رواية ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن الشغار. والشغار أن يزوج الرجل ابنته على أن يزوجه ابنته وليس بينهما صداق.
أما لفظ (لاشغار في الإسلام) فأخرجه ابن حبان في صحيحه ٩/ ٤٦٢، وكذلك ابن ماجه في سننه ١/ ٦٠٧ كلاهما عن أنس رضي الله عنه ، وأحمد في مسنده ٢/ ٣٥عن ابن عمر وفي مواضع عدة من مسنده.

وكثيراً ماكانت الحياة الزوجية على أتمها بينهما فيكره زوج الثانية على الفراق، وهناك من الضرر والأذى مالا يخفى .

فاتقوا الله عباد الله فيما حدد لكم نبيكم صلى الله عليه وسلم، وتباعدوا عن كل ما نهى عنه وحذركم منه، ولو شبهة ذلك، واجعلوا لكل بنت مهراً مستقلاً حقيقياً تؤدونه لها، وإياكم وتداخل العقود التي تحرجكم أخيراً وتوقعكم في المشاكل والمحاكم، وأحذركم أيضا من التعدي على مهور النساء ولو بشئ قليل من ذلك إلا أن يكون عن طيب قلب منهن؛ لأن أكل مهور البنات سحت وحرام، ونار يتجرعه أحدكم. فالحذر الحذر أيها المسلمون وفقني الله وإياكم للوقوف على حدوده في الأقوال والأفعال والأموال والأعراض، وأذكركم بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾.[1]

ويقول صلى الله عليه وسلم : (لن تزول قدما عبدٍ يوم القيامة عن الصراط حتى يُسأل عن أربع : عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن علمه ماذا عمل به، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه).[2]

---

(١) سورة الطلاق :١.

(٢) رواه الإمام الطبراني في معجمه الكبير ٢٠/ ٦١ بلفظ مقارب، ونصه من رواية معاذ ابن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لاتزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع خصال: عن عمره فيما أفناه وعن شبابه فيما أبلاه وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه وعن علمه فيما عمل فيه). كما رواه الترمذي في سننه ٤/ ٦١٢عن أبي برزة الاسلمي مرفوعاً بلفظ: (لاتزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع خصال: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن علمه فيما عمل فيه) قال الإمام الترمذي :هذا حديث حسن صحيح (المؤلف).

وأختتم كلمتي هذه بتذكير نفسي وإخواني بتحقيق العبودية له سبحانه وتعالى التي خلقنا من اجلها : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.[1]

قال ابن عباس رضي الله عنهما: (إلا ليعرفون). لأن تحقيق العبادة له سبحانه موصل للمعرفة قطعاً، وتحقيقها يكون بأداء حق الله تعالى وحق خليقته من الإخلاص والصدق في طلب رضوانه سبحانه وقربه ومعرفته، ولسان حال الصادق قوله بلسانه وقلبه: (إلهي، أنت مقصودي ورضاك مطلوبي).

اللهم حقق لنا ماخلقنا من أجله. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.[2]

٢ – رسالته لابنه الشيخ سعد الدين :

أرسل الشيخ رحمه الله هذه الرسالة عام: ١٩٥٢ لابنه سعد الدين وابن ابنه محمد خير عندما كانا يدرسان في الأزهر الشريف، وأذكر هنا بعض الفقرات لنتعرف على أسلوب الشيخ في التوجيه والإرشاد :

الحمد لله القائل: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[الآية: ٢١ النور]

---

(١) سورة الذاريات :٥٦.

(٢) كتب في ذيل الرسالة : (تم تأليفها بعون الله في :٩رجب ١٣٧٣ه الموافق آذار ١٩٥٤م كتابة العبد الفقير لله تعالى عبد الله وتأليف سيدي الوالد إبراهيم الغلاييني). والمراد: أن الشيخ أملاها على ابنه عبد الله فكتبها.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد أكمل الخلق على الإطلاق، وعلى آله وصحبه ومحبيه وأتباعه وحزبه، رزقنا الله اتباعهم ومحبتهم آمين. وبعد...فالسلام عليكم وعلى من معكم ومن في ذلك الطرف من الأحباب والإخوان ورحمة الله وتأييداته وتوفيقاته، وسهل الله لي ولكم الرفيق والطريق.

يا أولادي ...الأماني كثيرة، ولكن الأمر جد وعمل وسعي مبارك ضمن نطاق الكتاب والسنة وطبق التأسي بأهل السنة. جعلنا الله تعالى معهم في الدنيا والآخرة .

اعلموا أن روح نهجهم إسقاط الدعوى جملة، واتهام النفس والنظر للخلق بعين الكمال. والإنصاف معهم، والأدب مع جميعهم، وفقني الله تعالى وإياكم لذلك، وجعل السير طبق الشريعة الغرّاء، ورزقنا الاجتهاد على حفظ آدابها آمين .

أؤكد عليكم أن تغضّوا الطرف عن فظائع ذاك الطرف الذي حللتموه، وتفتحوا الأعين في زهرة تنقبون عليها وهي: مرشد يرشدكم الطريق علماً وعملاً، وهمة واجتهاداً، فهذا ينسيكم كل ماوصفتم من تلك الأخطار، وأن تغرقوا الوقت باجتهاد على ماعلمتموه من طرفنا من وصايا وآثار وجدتموها فكأنكم أنتم وربكم سبحانه، وقاطعوا كل من يأتيكم بفظائع وأحوال تلك الديار مما يشغل البال، ويكدر اللب، ولو كان أياً كان بعد نصحه وردعه.

التماسك[1] أن أخصك بشيء، هو قلبك كلما وجدته مستجمعاً على حب السنة المطهرة، وإقامة آدابها ،وعلى ذكر مولاك فاعلم أن الخير أجمعه عندك، ومن أخصه: رضى والديك بعد رضى مولاك، وآية ذلك: وجدان رضاك عن ربك وحمده وشكره القلبيين كيفما تقلبت الأحوال، وفقت لذلك، وسهل الله تعالى لكم ماهنالك .

ثم قال في ختام رسالته ....أؤكد الوصية أيضاً عليكما أن لايكون الرجاء إلا بكرمه سبحانه وقربه منكما أقرب من كل قريب، ورحمته سبحانه أرحم من كل رحيم، وأن ياولدي صلاة ركعتين في السحر ومثولك بين يدي مولاك ورجاؤك له وطلبك منه أشرف من مجلسك لجنب أعظم ملك من ملوك الدنيا. فاطلبو من ذلك الرب الحكيم بلجأ صادق تعطوا، ويجب أن يكون لجأكم إليه صادقاًوأنتم طلاب العلم الديني، فأؤكد عليكم أن تستغنوا بعلمه سبحانه ورحمته وأن لاتفتقروا لغيره سبحانه والسلام عليكم ورحمة الله .

(١) يعني ابنة سعد الدين؛ لأنه طلب من والده أن يخصه بالنصيحة (وهذا ماأخبرني به عمي الشيخ سعد نفسه)

المبحث السابع

تلاميذه

اتبع الشيخ في نشر العلم الأسلوب التقليدي الذي كان متبعاً في عصره، وذلك من خلال عقد الحلقات العلمية في المسجد، وبخاصة بعد صلاة الفجر. وقد نفع الله بعلمه عدداً من طلبة العلم تفاوتوا في مراتب التحصيل، ولكنهم جميعاً استفادوا وأفادوا، حيث كتب الله تعالى على أيديهم متابعة نهج الشيخ في الدعوة والتعليم والإرشاد.

وفد على الشيخ طلاب من أماكن مختلفة، فإلى جانب قطنا وقراها أتاه بعضهم من دمشق، ومن البقاع الغربي في لبنان أيضاً. وسأعطي فيما يلي فكرة موجزة عن أكثر تلامذته أخذاً عنه حسب ما توافر لدي من معلومات.[1]

١ – الشيخ محمد بدر الدين الغلاييني :

وهو أكبر أولاد الشيخ، وخليفته في الوعظ والتعليم .وسماه بهذا الاسم تيمناً باسم شيخة الشيخ بدر الدين الحسني رحمه الله. وقد لازم والده لفترات طويلة، وأفاد منه أيما إفادة إخلاصا، وعلما وسلوكاً، وجرأة في الحق، والتزاما بآداب الإسلام، تلقى عنه القرآن الكريم والعلوم الشرعية منذ نعومة أظفاره، ثم أتم تحصيله العلمي في مدرسة

(١) استقيت معظم معلومات هذا البحث مما أفادني به والدي حفظه الله ،ومما ورد في كتاب: (العلماء المعاصرون غرر الشام في تراجم آل الخطيب الحسنية ومعاصريهم) للشيخ عبد العزيز محمد سهيل الخطيب الحسني .

الشميصاتية خلف الجامع الأموي بإشراف العلامة :توفيق الأيوبي .

تولى الإمامة والخطابة في عدد من مساجد ريف دمشق، ومدينة الزرقاء بالأردن، اشتهر بالجرأة في قول الحق، ولحق به الأذى – ومنه السجن –من أجل هذه الجرأة، فصبر محتسباً الأجر عند الله سبحانه.

وقد اكتسب هذه الجرأة من والده رحمه الله كما عرفنا من صفاته، حتى ضجّ منه الإنكليز عندما كان إماما في مدينة الزرقاء الأردنية وشكوه للأمير عبد الله لفتاويه الجريئة فطلب منه مغادرة الأردن.

عاد الشيخ إلى قطنا وأكرمه الله بالقرب من والده مساعداً له في الإمامة والخطابة ونشر العلم بالجامع العمري، وقد استمر في الخطابة فيه بعد وفاة والده، ثم انتقل للخطابة في جامع إبراهيم الغلاييني بعد اكتمال بنائه في أوائل الستينات من القرن المنصرم

عيُّن مدرسا دينياً لقطنا من قبل وزارة الأوقاف عام ١٩٤٧م واستمر على ذلك، مع الخطابة في جامع الشيخ إبراهيم إلى أن استقال عام ١٩٨١م، بعد أن زادت الضغوط على أهل العلم فرفض التزلف لأحد إلا لله سبحانه وتعالى .

لم يكتف الشيخ بعمله الرسمي، وقد فتح الله على يديه بعقد حلقات العلم لطلاب العلم الشرعي في دمشق إلى جانب جهوده العلمية والدعوية في قطنا، وكانت له هيبة مشهودة،ومواقف على المنبر تنبىء عن إيمان صلب لايتزعزع.[1]

(١) شهدت له بنفسي ثلاث خطب مشهورة لأنساها . وقد هاجم في إحداها المقال المنسوب

ولد الشيخ عام ١٩١٠م، توفي رحمه الله في جدة عام ١٩٩٢م، وأكرمه الله بالدفن في مقبرة المعلاة بمكة المكرمة، والتي تضم في تربتها أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها تغمده الله بواسع رحمته وفضله .

٢- الشيخ عبد الله الغلاييني:

وهو خليفته في الفتوى، ولد عام ١٩٢٤م نشأ في كنف والده وتلقى عنه القرآن الكريم ، وقرأ عليه عدداً من كتب اللغة التي قرأها عليه: شرح شذور الذهب لابن هشام، التحق بالمعهد الشرعي التابع للجمعية الغراء ثم انتقل للثانوية الشرعية التابعة لمديرية الأوقاف بدمشق، ثم تابع الشيخ تحصيله العلمي وبخاصة في الفقه الإسلامي على يد الشيخ حسن حنبكة في جامع منجك بحي الميدان، وكذلك على يد مفتي سورية أنذاك الشيخ الدكتور: أبو اليسر عابدين في الحلقات العلمية التي كان يعقدها لطلبة العلم.

عيُّن الشيخ بعد تخرجه إماماً وخطيباً لمسجد خوبان بحي السمانة في دمشق واستمر فيه لعشر سنوات ،ثم عيُّن خطيباً لجامع الزهراء بحي المزة بدمشق سنة ١٩٥٨م وحتى عام ١٩٧٥م.

عيُّن مفتياً لقضاء قطنا عام ١٩٥٧م من قبل وزارة الأوقاف بعد أن شعر والده بالضعف لتقدمه في السن، وقد بارك والده هذا الاختيار

للمدعو: إبراهيم خلاص، حيث كتب مقالا كفريا صرفا في مجلة حكومية اسمها: جيش الشعب. وقد حبس على إثرها بقلعة دمشق، والأمر ذاته حصل مع والدي، وكنت أزورهما في السجن.

داعياً له بالتوفيق والسداد وتوفي والده بعد هذا بستة أشهر رحمه الله .

أضيفت الى الشيخ عبد الله رئاسة شعبة أوقاف قطنا عام ١٩٧٠م فتابع مابدأ به والده من مهام في الإفتاء والدعوة والإرشاد، فتابع الجولات الدعوية التي كان والده يقوم بها لإحياء شعائر الإسلام في قرى قضاء قطنا، كما أشرف مع لجنة مباركة من قطنا على بناء مسجد الشيخ إبراهيم في قطنا حتى اكتمل بناؤه - وهو أكبر جامع في قطنا أنذاك - فصار أول إمام له، كما تعاون مع أهل الخير والفضل في قطنا في إنشاء جمعية البر والتعليم الإسلامي والتي أشرفت على إنشاء مدرسة إسلامية، مع تقديم الإعانات للأسر المستورة، ولازالت تقوم بأعمالها حتى الآن والحمد لله.

دأب الشيخ على متابعة نهج والده في نشر العلم فكان يعقد دروس العلم في جامع الشيخ إبراهيم بما يتناسب مع وقته،وقد استمر في منصب الإفتاء حتى أحيل على التقاعد.

توفي صباح يوم السبت الموافق ١٧ ذو القعدة ١٤٢٧هـ الموافق ٩ كانون الأول ٢٠٠٦ م ودفن بجانب والده بمقبرة باب الصغير رحمه الله تعالى رحمة واسعة .

٣- الشيخ سعد الدين الغلاييني :

ولد في مدينة دمشق عام ١٣٤٧هـ الموافق ١٩٢٨م وهو الابن الرابع بعد أشقائه الشيخ محمد بدر الدين والشيخ أحمد والشيخ عبد الله ، وقد ترعرع في أكناف والده العالم الشيخ إبراهيم، ونهل من معينه

الثرى، وتربى على القرآن والسنة والآداب الإسلامية، وتأثر بوالده المربي والعالم أيما تأثر، ونشأ على حب الصلاح والتقوى وطاعة الله وطلب العلم.

درس العلوم الدينية الأساسية على يد والده العالم المربي، ثم التحق بالمدارس الرسمية حتى نال الشهادة الثانوية العامة وكذلك الثانوية الشرعية، ثم ابتُعث لتفوقه ونبوغه إلى مصر لإكمال دراسته الجامعية العليا في الأزهر الشريف.

تلقى القرآن الكريم ومبادئ العلوم الشرعية على يد والده، فقرأ عليه في علم الحديث: نوادر الأصول والترغيب والترهيب والبيان والتعريف في أسباب ورود الحديث ، والهدية العلائية، وقدراً من حاشية ابن عابدين في الفقه الحنفي، والتحق بالتعليم الرسمي، ثم درس في الثانوية الشرعية التابعة للأوقاف وكانت وقتها في سبع طوالع – زقاق النقيب – ثم التحقق بالأزهر الشريف وتخرج منه عام ١٩٥٥م.

أنهى دراسته العليا في مصر وعاد إلى بلده عام ١٩٥٥م، وعُين من قبل الوزارة مُدرساً للعلوم الشرعية، متنقلا في ثانويات سوريا بين درعا والنبك ودمشق، ثم استقر في دمشق إلى آخر حياته، وكانت هذه الفترة مليئة بالعطاء والبذل، واستفاد منه الكثيرون من أبناء سوريا والسعودية حيث دَرَّس فيها أيضاً في المعاهد العلمية في تبوك والباحة والطائف. ولاتزال كثير من رجالات سوريا والسعودية يذْكُرونه بالخير ويُثنون على إخلاصه وخدمته لرسالته التربوية والتعليمية .

واستمر في التدريس الرسمي حتى سن التقاعد، ثم تابع مسيرته

التعليمية ورحلة العطاء من روحه ونفسه في المعاهد الشرعية في دمشق، وأغلبها كان حُسبة لله، وبذل جُل وقته وعطائه في معهد الفرقان الشرعي الخيري في حي المهجرين – جادة المرابط القريب من منزله – وكان هذا المعهد متخصصاً في احتواء وإعداد طلاب العلم من غير العرب من جميع انحاء العالم الإسلامي ومن أفريقيا وشرق آسيا والبلقان وأوروبا وتركيا .

توفي عام ١٤١٩ هـ الموافق ١٩٩٩م ودفن بجوار والده بمقبرة باب الصغير رحمه الله رحمة واسعة .

٤-الشيخ محي الدين القادري :

وهو من أبناء قطنا، ولد عام ١٣١٥هـ وبدأ طلبه للعلم على يدي الشيخ في فترة مبكرة جداً وذلك بعد إكماله للصف الخامس الابتدائي، ومن الكتب التي قرأها على الشيخ:

فن التوحيد : شرح الجوهرة (جوهرة التوحيد للشيخ إبراهيم اللقاني) والسواد الأعظم في الكلام لابن القاسم اسحق السمرقندي ت ٤٢٢ هـ.

في أصول الفقه: شرح الورقات للإمام الجويني، المستصفي للغزالي، الموافقات للشاطبي

في الفقه: متن الغاية والتقريب وشروحه ،والمنهاج للنووي في الفقه الشافعي، ومجمع الأنهر في ملتقى الأبحر في الفقه الحنفي.

في الفرائض: شرح الرحبية والسراجية، وحفظ القرآن الكريم

على يديه، وقرأ عليه بعض كتب التفسير كابن كثير، وطرفاً من تفسير الرازي والقرطبي والخازن والنسفي ،كما قرأ عليه أيضاً بعض كتب اللغة العربية، وكان مواظباً على دروس شيخه، سواء في المسجد أو في المنزل، وقد نفع الله بعلمه كثيراً من أهل قطنا وقراها، خاصة وأنه عمَّر طويلاً حتى ناهز المائة رحمه الله.

٥- الشيخ طه بن محمد الأطرش:

وهو من قرية كناكر التابعة لقضاء قطنا، وقد أتى به والده إلى الشيخ وهو ابن عشر سنين على الأغلب قائلاً: هذا ولدي وهبته لك،وقد مكث عنده تسع سنوات تلقى خلالها مبادئ العلوم الشرعية والعربية، وقد نبغ بعلم الفرائض (المواريث) ورجع لقريته إماماً وخطيباً ومرشداً، وكان من توفيق الله سبحانه له أن تزوج ابنة الشيخ، وقد مدّ الله في عمره فتوفي عن اثنين وثمانين عاماً، وكتب الله له القبول عند الناس لعلمه ودماثة خلقه. فكان المرجع العلمي - وبخاصة في الفتاوى الإرثية - لقريته وللقرى المجاورة لها خلال تلك السنين المديدة، تغمده الله بواسع رحمته.

٦-الدكتور محمد أديب صالح:[1]

كان من أنجب تلاميذ الشيخ، وكان محبوباً وأثيراً لديه، وبلغ من ذلك أن زوجه بابنته الصغرى، وفتح الله عليه علماً وخلقاً بفضل الله

(١) إستقيت هذه المعلومات من الدكتور محمد أديب صالح أطال الله في عمره.

سبحانه ثم بفضل ملازمته للشيخ في فترة هامة من حياته هي فترة الصبا والشباب .حيث شرف بالمداومة عند الشيخ رحمه الله بين سنتي ١٩٣٨ و١٩٣٩ م ومع التعليم كانت له عناية خاصة به اذ توسم فيه النجابة فدرّبه على الخطابة والتدريس في الجامع العمري بقطنا، وبث فيه روح الحمية والسلام، وغرس في نفسه حب العربية والعناية بها؛ مما كان له أكبر الأثر في بناء شخصيته العلمية والروحية .

انتسب الى الكلية الشرعية بدمشق عام ١٩٤٤م فتابع دراسته المتوسطة والثانوية فيها وحاز على شهادتيهما، وضم إليهما مثيلتيهما في التعليم العام الحكومي بجهده الشخصي .

أوفد للأزهر عام ١٩٤٦م فتابع تحصيله فيه، إضافة الى التحاقة بكلية الحقوق – جامعة القاهرة مما مكنه من التخرج منهما معاً.عيُّن مُدرساً في دور المعلمين في سوريا عند عودته لها، ثم معيداً في كلية الشريعة بدمشق، ثم أوفد ثانية الى كلية الحقوق بجامعة القاهرة حيث تابع دراسته العليا ليحصل على درجة الدكتوراه في الحقوق فرع الشريعة الإسلامية بمرتبة الشرف الأولى مع تبادل الرسالة مع الجامعات الأجنبية، وموضوع الرسالة: (تفسير النصوص في الفقه الإسلامي). بدأ بالتدريس بكليتي الشريعة والحقوق بجامعة دمشق أواخر عام ١٩٦٤م، ثم ترأس قسم علوم القرآن والسنة بكلية الشريعة، وأسندت اليه رئاسة تحرير مجلة حضارة الإسلام في العام نفسه بعد وفاة العالم العامل الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله، كما تولى الخطابة بمسجد جامعة دمشق لسنوات عدة.

انتقل إلى جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض وترأس قسم السنة النبوية بكلية أصول الدين لسنوات عديدة، ثم انتقل أستاذاً إلى جامعة الملك سعود.

له العديد من المؤلفات في أصول الفقه وعلوم الحديث وموضوعات إسلامية أخرى متنوعة

٧- الشيخ توفيق شرقية :

وهو لبناني من قرية خربة روحا في البقاع، جاء به والده إلى قطنا ليدرس على يد الشيخ وهو ابن ثماني عشرة سنة، فتلقى مبادئ العلوم الشرعية والعربية، وحفظ القرآن الكريم مع إتقان أحكام التجويد، كما أنه تعمق في الفقه الشافعي، ولما رجع إلى بلدته: (خربة روحا) في البقاع رافقه شيخه رحمه الله، وتم تعيينه إماماً وخطيباً لمسجد البلدة ،وأوصى أهل بلده به خيراً، كتب الله للشيخ توفيق المحبة في قلوب الناس، وتنقل بعد ذلك في عدد من قرى البقاع إماماً ومرشداً، أمد الله في عمره، وقد توثقت صلة الشيخ إبراهيم بأهل قرية خربة روحا خاصة، والقرى المجاورة لها عامة، فكان يخصهم بزيارات دعوية كما سبق ذكره. وأترك المجال للشيخ توفيق يحدثنا عن علاقته بشيخه رحمه الله.[١]

إني في سنة ١٩٥٢ توجهت إلى طلب العلم الشرعي في سوريا على يد العلامة العارف بالله سيدي وتاج رأسي الشيخ إبراهيم الغلاييني،

(١) هذا ماوافاني به الشيخ توفيق شرقية كتابة عندما التقيته في البقاع في لبنان صيف ٢٠٠٩م.

ومن توفيق الله زيارة العلامة الشيخ إبراهيم لبلدتنا خربة روحا في جولةٍ دعويةٍ بين قريتنا والقرى المجاورة، فاغتنمت الفرصة لأسأل ولده العالم الجليل محمد بدر الدين الغلاييني عن إمكان طلبي لعلمٍ شرعيٍّ في سوريا، وقام معي بالبحث عن مدرسةٍ أو حلقات شبابيّة، ولما لم يتيسر ذلك عرض عليّ أن أدرس عليه وعلى والده الشيخ إبراهيم، وانشرح صدري لذلك، وفرحت بقبوله لي تلميذاً، ثم قبول سيّدي والده الشيخ إبراهيم أن أكون له تلميذاً وخادماً، وكان هذا شرفاً كبيراً وفتوحاً عظيماً، وبدأ لقائي بالشيخ محمد يدرسني الفقه على مذهب الإمام الشافعي من كتاب عمدة السّالك وعدّة الناسك، وفي النحو في شذور الذهب لابن هشام ثم في شرح ابن عقيل على ألفيّة ابن مالك، بعدما حفظت الكثير منها، وبدأت في حفظ متن الزبد للرملي رضي الله عنه في الفقه، وقد شارفت على آخره عن ظهر قلب، وهناك متون في الفرائض كالرحبية والسراجية فضلاً عن حفظ القرآن الكريم والتفسير والحديث: الأربعين النووية ثم رياض الصالحين، ثم كتب حمدي عبيد رحمه الله المختارة من البخاري ومسلمٍ وغالبها عن ظهر قلب، مع الإمامة التي أكرمني سيدي الشيخ إبراهيمٍ حيث يخطب ولده الشيخ محمد الجمعة، ورغم أن عمري في التاسعة عشرة فقد أقنع الشيخ إبراهيم عليه رحمات الله تتوالى من قدمني عليهم من الكبار في السن، وعندهم العلم والقرابة من الشيخ أن المقام يحتاج إلى الإذن من الشيخ، والشيخ يتصرف حسب الشريعة، وقد قدم النبيّ صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد على أبي بكرٍ وعمر وعمره ثمانية عشر عاماً ،وقدم عتاب بن أسيد للإمامة وعمره ثلاثة وعشرون عاماً.وكنت أستمع من سيدي الشيخ إبراهيم الدروس في

الصبح والعصر، وأحضر الختم النقشبندي بعد صلاة الجمعة، حيث لايبقى من بحصره بدون أن يبكي من خشية الله، وذلك بعد صلاة كل جمعة مما يجلي القلب ويجدد إيمانه وصفاءه.

٨- محمد بدر الدين عابدين :

وهو عالم دمشق بدأ حياته في الخدمة العسكرية ضابطاً في آخر العهد التركي، وبعد انتهائه منها تتلمذ على يدي المحدث الأكبر الشيخ بدر الدين الحسني ،ثم لحق بالشيخ إبراهيم في قطنا ،ولزمه وطلب العلم الشرعي عليه وأحبه حباً شديداً لمسته بنفسي حيث التقيته مراراً.

لقد فتح الله عليه في مجال التربية والتعليم فكان مديراً للمدرسة في قطنا في أول عهد الفرنسيين ،ثم انتقل إلى دمشق مدرساً وواعظاً في المسجد الأموي وخطيباً في أكثر مساجدها،ثم غدا مديراً لعدد من المعاهد الشرعية في دمشق والتي كان لها اهتمام خاص باستقبال وتعليم طلاب العلم الشرعي الوافدين إلى سورية من غير العرب كالأتراك وبعض البلدان كالبوسنة والهرسك، فقد كان رحمه الله متقناً للغة التركية ،وهذه المعاهد هي:معهد العلوم الشرعية في حي باب الجابية، ومعهد الفرقان بجانب جامع المرابط في حي المهاجرين بدمشق.

المبحث الثامن

قطوف من أقوال بعض عارفيه

إن مما يحز في نفسي أن ظروف غربتي الطويلة لم تمكنني من استكتاب أقران الشيخ وعارفيه وتلاميذه (وهم كثر) فمعظمهم قد لقوا وجه ربهم ، ولكني أفدت كثيراً ممن أكرمني الله بلقياهم، فحظيت منهم بقطوف يانعة مما يتعلق بسيرة الشيخ العطرة عرضتها هنا بأمانة والحمد لله .

فضيلة الشيخ ملا رمضان :

لقد زرت الشيخ ملا رمضان رحمه الله يوماً من الأيام برفقة والدي الكريم في أواخر الستينات، فتحدث عن الشيخ موجهاً الحديث لي قائلاً : (كان جدك زهرة الشام) حينها لم أدرك حقيقة ماقال، ولكني اليوم أعرف مرماه .إن الصورة الآن أصبحت مكتملة في مخيلتي ،فالنفوس كانت تهفو لرؤية الشيخ والإصغاء إلى كلماته، لا لأنه كان شاعراً أو أديباً يحسن تدبيج الكلام وتنميقه ،بل لما كان في قلبه من إخلاص وغيرة على المسلمين.

فضيلة الشيخ محمد بدر الدين عابدين:

هو من تلاميذ الشيخ كما ذكرت، وقد كتب رسالة صغيرة في ذكرى وفاة شيخه، وفيها أتى على نبذة من صفحات شيخه وأخلاقه فقال: (عرفت هذا الشيخ الجليل منذ معرفتي لهذه الدنيا عالماً فقيهاً، ورعاً وقوراً، هادئاً ذاكراً، مراقباً سخياً، عابداً، ذا وجه صبوح وضّاء، دؤوباً على ذكر الله، صؤوماً، أسهل شئ عنده بذل ماله في سبيل إكرام أضيافه، لاينزل قدره عن الموقد، كثير الرماد، صبوراً على النوائب، يقظاً ذكياً ،ملهماً كثير التنفل، متهجداً تالياً للقرآن، ليس للشيطان عليه سبيل، لايغضب لنفسه، بل لله إذا انتهكت حرماته، ذا قوة وصدق في محبة الله، حافظاً لكتاب الله، ذا صوت حسن ونغمة وتخشع في التلاوة يؤنس ضيفانه ويقضي حوائج من قصده، ويدخل على الحكام بلا وجل ولا هيبة، لايدخل في جوفه خوف القلة والعوز، ولايهتم لطعامه في المستقبل، شكوراً لله تعالى، حامداً لنعمته، يأمر بالمعروف كل من حضره سواء كان في بيته أو في الطريق أو في جامعه، ذا مهابة لايستطيع من جالسه أن يبدأه الكلام إلا إذا هو بدأ به، لايكذب ولايرائي، ولايداهن، بل يجهر بالحق أمام كل مخالف، ولاتأخذه في الله لومة لائم مهما عظم.. وكثيراً مايخرج من بلدة قطنا إلى القرى المجاورة لها فيدخل القرية مبتدئاً بتحية مسجدها في الصلاة، يحض الناس على أداء الصلاة جماعة – ماحل في قرية إلا وفد أهلها للسلام عليه – ولاترى داراً إلا وقد دخلها السرور، وكثيراً مايجمع أهل القرية في المسجد أو في المضافة أو في الحقول فيرشدهم إلى سعادة الدنيا والآخرة، ويعظهم

ويخطب فيهم، ويسألونه عن دينهم وأمورهم فيعظهم ويأمرهم بطلب العلم وأداء فرائض الله، ويعيِّن الأئمة والخطباء والأكفاء للقرى النائية الخالية من إقامة شعائر الدين، وبالجملة كان رحمه الله نسخة صادقة كاملة طبعت فيها الوراثة المحمدية، لاتسأل عن حسن صلاته وصيامه وحجه، وتعظيمه لرسول الله كلما ذكر عنده، ولاتسأل عن آدابه عند زيارته للروضة الشريفة، وهناك تتجلى صفاته ماثلة للناظرين، لم يترك الاعتكاف في العشر الأخير من رمضان إلا في الشهر الذي كان آخر شهوره رحمه الله وعوض الله المسلمين كثيراً من أمثاله من العلماء العاملين والمخلصين.[1]

الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله :

كتب الشيخ ذكرياته بنفسه، وكان مما جاء فيها أنه لما كان قاضياً في دمشق انتدب للقضاء في وادي العجم (قطنا) أيضاً، فخصص لها يوماً في الأسبوع، وكانت هذه فرصة للقاء الشيخ إبراهيم الذي كان مفتياً هناك، كتب الشيخ علي عن ذلك فقال: (وكان في قطنا شيخ جليل القدر، وهو رفيق شيخنا الشيخ أبي الخير الميداني، اسمه الشيخ إبراهيم الغلاييني، وكان عالماً آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، صدّاعاً بالحق، له سطوة على المنحرفين من أهل البلد، وهيبة في صدور الناس، فكنت أزوره أحياناً.[2]

---

(١) من رسالة بعنوان (ذكرى وفاة العلامة الشيخ إبراهيم الغلاييني) :لمؤلفها الشيخ بدر الدين عابدين

(٢) ذكريات علي الطنطاوي ٨/ ٥٤

السيد محمد العزوزي الإدريسي الحسني :

وهو أمين الفتوى في الجمهورية اللبنانية، ورئيس المجلس العلمي سابقاً، قال عن الشيخ في كتابه «إتحاف ذوي العناية» (العالم البركة الصالح الذاكر العابد، كعبة القاصدين وإمام الواصلين ومربى المريدين المفتي الشيخ إبراهيم الغلاييني، لاتجده إلا ذاكراً أو واعظاً أو تالياً لكتاب الله أو متطوعاً بنوافل الخيرات مع كرم وأفضال وخدمة لكل زائر من الإخوان).[1]

(١) إتحاف ذوي العناية، وهو ثبت السيد محمد العربي العزوزي الادريسي الحسني ص٤٩-٦٠.

المبحث التاسع

وفاته رحمه الله

انتقل الشيخ إلى دمشق قبل وفاته بشهر ونصف، وسكن في حي الميدان .

وخرج رحمه الله يوم الجمعة الموافق ١٤/ شوال /١٣٧٧هـ قاصداً جامع مازي لأداء صلاة الجمعة، وبعد انتهاء الصلاة بدا له زيارة العلامة الشيخ (السيد محمد مكي الكتاني) في داره، وبينما هما يتحدثان في أمر الأمة والنهوض بها مما حل فيها من الضعف والهوان، إذ فاجأ الفقيد رعشة في بدنه ورعدة في جسمه؛ مما يشير إلى حدوث نوبة قلبية، مما تطلب نقله إلى مستشفى المجتهد في الحي نفسه، وفي الطريق قال لولده عبد الله وكان بجانبه (سيد سامحني) ومقصوده أن يطلب من السيد مكي الكتاني أن يسامحه على ماسببه من إزعاج بسبب قدوم سيارة الإسعاف إلى منزله، وانقطع عن الكلام بعد هذا، وقد اهتم رئيس الجمهورية آنذاك السيد شكري القوتلي رحمه الله بالشيخ فأرسل رجلاً من خواصه آمراً رئاسة الصحة بالاعتناء به .

بقي الشيخ في حالة غيبوبة منقطعاً عن الكلام، ولكنه بدأ بتحريك شفتيه بذكر الله سبحانه بصورة مطردة وواضحة قبل وفاته، حيث سمعه من كان قريباً منه كما ذكر لي والدي الكريم، لأنه كان بجانبه ومعه الشيخ طه الأطرش رحمه الله، وفارق الشيخ الحياة بعيد آذان الفجر يوم الإثنين الموافق ٧شوال ١٣٧٧هـ مفارقاً هذه الدنيا الفانية،

وفاحت رائحة عطرة من جسمه شمها والدي الذي كان بجانبه مع تلميذ الشيخ وصهره الشيخ طه الأطرش. فارق الشيخ هذه الدنيا التي طالما حذر تلاميذه من فتنتها والانغماس فيها، صعدت روح الشيخ إلى بارئها مطمئنة راضية بقضاء الله سبحانه .

فارق الحياة محملاً المسؤولية لمن خلقه من ورثة الأنبياء الذين لن يخلو عصر منهم بعون الله، كما قال عليه الصلاة والسلام فيما رواه جابر رضي الله عنه: (لاتزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة)[1].

إصبر لكل مصيبة وتجلد واعلم بأن المرء ليس مخلد

وإذا ذكرت مصيبة تسلو بها فاذكر مصابك بالنبي محمد

نعت الإذاعة السورية الشيخ، كما نعاه المؤذنون على مآذن دمشق، وتم نقل جثمانه إلى منزل ابنه الكبير الشيخ محمد بدر الدين في حي الميدان وهناك جهز للصلاة عليه، وتواكب الناس لإلقاء نظرة الوداع عليه، ثم حمل على الأكتاف إلى الجامع الأموي[2]، وهناك صُلِّي عليه بحضور عدد كبير من علماء دمشق وحلب وحماة وحمص وجماهير غفيرة من أبناء دمشق وما جاورها من القرى وبخاصة قطنا التي أعلن السائقون فيها استعدادهم لنقل المسلمين مجاناً إلى دمشق لحضور الجنازة، وقد رأيت بنفسي جموعهم وهم يتزاحمون على الحافلات في ساحة

(١) رواه مسلم.

(٢) تبلغ المسافة مقدار ساعة للماشي العادي، فكيف بمن يشيع جنازة!!

الجامع العمري للذهاب إلى الجامع الأموي ليودعوا شيخهم ومرشدهم ومفتيهم الذي ظل قائماً بواجبه هناك أكثر من خمسين عاماً[١].

خرج المشيعون من الجامع الأموي حاملين للنعش، مخترقين سوق الحميدية، وعند خروجهم منه حاول أهالي قطنا الذين قضى الشيخ معظم حياته معهم أن يأخذوه إلى قطنا، ولكن الدمشقيين أبوا – وكانوا الأغلبية بالطبع فتابعوا التشييع إلى مقبرة باب الصغير، حيث ضريح سيدنا بلال الحبشي رضي الله عنه مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم، و مدفن عدد من آل البيت عليهم رضوان الله وسلامه، وتم دفنه قريباً من ضريح شيخه محدّث الديار الشامية الشيخ بدر الدين الحسني رحمه الله. وبجوار شيخ صالح اسمه: عبد الكريم الآوي[٢].

وقد أبّنه عدد من علماء دمشق الأبرار منهم: رئيس تحرير مجلة

---

(١) هذا هو شأن أهل دمشق الأوفياء مع علمائهم، وقد حضرت جنازة الشيخ عبد الوهاب الحافظ رحمه الله ورأيت جموعهم الغفيرة التي لا تحصى، وهذا يذكرنا بقول الإمام أحمد لبعض الظلمة: (بيننا وبينكم الجنائز) ويعني أن الناس عادة تحضر جنازة من تكن لهم المحبة والاحترام، وقد كانت جنازته مصداقاً لهذا؛ لأن بغداد كلها أغلقت يوم وفاته، وقدر المشيعون بأكثر من مليون – رحمه الله – .

(٢) أكثر هذه المعلومات من الكتيب الذي ألفه الشيخ بدر الدين عابدين بعنوان: «ذكرى وفاة العلامة مفتي قضاء قطنا المرحوم الشيخ إبراهيم الغلاييني تغمده الله بالرحمة والرضوان» وكذلك مما أفادني به والدي رحمه الله. ومن العجيب: أن عددا من الصالحين أوصوا بدفنهم بجانب ثراه. ومنهم: الشيخ الدكتور مصطفى السباعي المراقب العام الأول للإخوان المسلمين، والشيخ الجليل عبد الكريم الرفاعي، ومفتي الجمهورية السابق عبد الرزاق الحمصي، والشيخ ملا رمضان، ووالدي الشيخ عبدالله، وعمي الشيخ سعد رحمهم الله جميعاً وجمعنا بهم تحت لواء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

التمدن الإسلامي السيد محمد بن كمال الخطيب، والشيخ: حسين خطاب رحمه الله، وقد حضر الجنازة نائب رئيس الجمهورية السيد: صبري العسلي، والمفتي العام الشيخ: أبو اليسر عابدين، وأعضاء رابطة العلماء التي كان عضواً فيها، وعلى رأسهم رفيق دربه الشيخ أبو الخير الميداني.

وقد ذكر مآثره عدد من خطباء الجوامع، منهم: الشيخ (أبو الفرح الخطيب) خطيب الجامع الأموي، والشيخ (حسن حبنكة) خطيب الميدان، وتلميذه الشيخ (محمد بدر الدين عابدين) خطيب جامع بعيرة في شارع بغداد، وغيرهم من الخطباء.

قامت رابطة العلماء بتنظيم مراسم التعزية في مشهد الجامع الأموي بين العشائين، فحضر الجمع الغفير من سائر الطبقات، ومن عدد من محافظات سورية، وقد شهدت ذلك بنفسي وكان عمري آنذاك عشر سنين.

ملحق...

نبذة عن مؤتمر العلماء الأول المنعقد بتاريخ ١١-١٢/ رجب/١٣٥٧هـ الموافق ٦-٨/أيلول/١٩٣٨م:

الهدف من إثبات هذا الملحق في هذه الترجمة إعطاء القارئ فكرة عن اهتمام علمائنا الأجلاء بقضايا الأمة وآلامها ومشكلاتها في فترة عصيبة من تاريخنا إبّان الاحتلال الفرنسي لسورية، ومعظم بلاد العرب والمسلمين، قبيل نشوب الحرب العالمية الثانية، وهذا يدحض

الفكرة الشائعة – التي يروج لها أعداء هذه الأمة – من أنَّ العلماء لا يهتمون إلا بشعائر العبادة.

كان الصراع في فلسطين في تلك الفترة بين المستعمر الإنكليزي والعرب قد ظهر للعيان، فقد كان الإنكليز يسعون جاهدين لتنفيذ وعد بلفور بتمكين المهاجرين اليهود من الاستيطان في فلسطين قبل إعلان انتهاء الانتداب، وكان الفلسطينيون مقارعين لهم بكل ما يملكون من وسائل رغم ضعفها.

كما عادت أبواق المستعمرين الإعلامية في تلك الفترة تُرجف بأن المسلمين سيضطهدون الأقليات غير المسلمة التي تعيش في بلادهم، فالإسلام بزعمهم دين يضطهد هذه الأقليات، ولا يستطيع التعايش معها إلى جانب هموم محلية أخرى تلمسها العلماء آنذاك، وأتوا على ذكرها الواحدة تلو الأخرى مبينين وجهة نظر المسلمين فيها.

وجهت جمعية العلماء في دمشق الدعوة إلى عقد هذا المؤتمر فلبى الدعوة مائة وسبعة من علماء سورية بكافة محافظاتها، وكذلك علماء من القدس ولبنان والعراق، وكان الشيخ إبراهيم الغلاييني أحد العلماء الذين شاركوا فيه.

واجب العلماء في تبرئة الإسلام مما يصفه به المستعمرون:

بيَن البيان الصادر عن المؤتمر في البداية واجب العلماء في هذا الصدد فكان مما جاء فيه:

(..لما كان الدين الإسلامي في مبادئه الإنسانية السلمية العليا،

وفي قواعده الحكيمة الرفيعة العامة، وفي أهدافه الإصلاحية التنظيمية الاجتماعية الكبرى لا يقتصرعلى أن يكون عقيدة فردية خاصة، بل هو عمل وأمل، وهمة وانتظام، وحسن تدبير للحياة المشتركة بين من يعيشون تحت سماء واحدة تظلهم، وفوق أرض واحدة تقلهم، ورسالة اجتماعية عامة إلى البشر قاطبة، جاءت تحمل الاحترام للإنسان مطلقاً، والرحمة العامة بين الناس مهما اختلفت أجناسهم ومذاهبهم؛ ليعيشوا بعيدين عن العصبيات الذميمة التي تقطع عليهم طريق التعاون في العمل النافع المفيد للمجموع، تلك العصبيات التي أينما وجدت اليوم فإنما هي أثر سيئ وطابع كريه من طوابع الاستعمار الذي يئس اليوم من أن يبرر مقاصده الغاشمة فلم ير وسيلة أكبر مفعولا في إخفاء تلك المقاصد، وسترها عن أنظار الضعفاء الميتة لهم سوى إيجاد النعرات المذهبية، والعصبيات الذميمة الطائفية، ليلهيهم عن شؤونهم وشجونهم، متباكياً بدموع الكذب على من يسميهم بالأقليات زاعماً حمايتهم لتثبيت أقدامه فوق مخانق الجميع على نحو الأسلوب الشيطاني الذي قال فيه نبينا عليه الصلاة والسلام: (أما بعد أيها الناس: فإن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه أبداً، ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضي به مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم)[1].

بلغت قرارات المؤتمر سبعة وعشرين قراراً، تضمنت المطالبة بإنشاء مدارس شرعية لطلبة العلم، وإصلاح المحاكم الشرعية، وملء

(١) أخرجه المحب الطبري عن إسحاق، والبيهقي في دلائل النبوة ٥/٤٤٩، والحاكم في المستدرك ١/٩٣ من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنه، وهو جزء من خطبة النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع.

الشواغر من الوظائف الشرعية كالإفتاء والتدريس العام، وإعادة الأوقاف المستولى عليها من قبل بعض الدوائر الحكومية وبخاصة الخط الحجازي، والمطالبة بزيادة الدروس الدينية في مدارس المعارف (أي المدارس العامة التابعة للوزارة) والمطالبة بصيانة الآداب والأخلاق العامة فيما يتعلق بالأشرطة السينمائية ولغة الشوارع.

قضية فلسطين:

وجاء القرار العاشر قوياً يتحدث عن معاناة أهل فلسطين، ومما جاء فيه: (الاحتجاج الشديد على مايجري في فلسطين الشقيقة المعذبة لإجلاء أهلها عنها، وتقسيمها بين الدخلاء من أعمال السلطة الإنجليزية من قتل وتعذيب ونسف المنازل والقرى ولمدينة جنين، والاعتداء على كرامة رجال الدين [الدينيين الإسلامي والمسيحي]، ومعاملتهم كالجناة المجرمين، وانتهاك حرمات المعابد..).

ومن المقررات أيضا: المطالبة بزيادة الاعتناء باللغة العربية في المدارس ودواوين الحكومة، ومن المقررات المعنية بالصالح العام:المباشرة بتنظيم مشروع القرش؛ ليصرف في سبيل تأسيس مدارس علمية، ومياتم ومستشفيات، ويكون أساساً لأموال المؤتمر .

الرد على مزاعم الاستعمار:

لقد وجه المؤتمر كلمة خاصة لرجال السياسة تنم عن وعي تام بما يجري حولهم،ومما جاء فيها: (هذا وإنّ المؤتمر يجد من الواجب عليه أن يلفت أنظار رجال السياسة في البلاد المسؤولين عنها إلى ضرورة

الاهتمام بالتهذيب الديني، وأثره في النفوس،ذلك الأثر الذي لايقوم مقامه سواه في تكوين صلاح الشعب، وإعداده للحرية والاستقلال وأن لاتكون دعايات الاستعمار الكاذبة في تشويه سمعة الإسلام، وتصويره بصورة الخطر على العناصر المواطنة الدينية الأخرى ذريعة تحمل على اجتناب الجهر بالمحافظة على الأوضاع الدينية بداعي إيجاد الخيفة من دسائس الاستعمار، فإن ذلك الاستعمار ورجاله الماهرين فيه لايعدمون وسائل أخرى غير الدين يتخذونها مبرراً للتدخل وتحقيق مطامعهم، فليكن أقوى سلاح لمحاربة الاستعماري المراكز الإسلامية الاجتماعية، التي هي خير ضامن للوحدة الوطنية بين أبناء البلاد، ولتكن الذريعة الحكيمة لصد هجمات الاستعمار هي تقوية العقيدة الإسلامية ومبادئها ونتائجها في النفوس .

فإن الإسلام كما رأينا لا يأتلف مع هذا الاستعمار الهدام في زمان ولا مكان، ويأتلف في الحياة المستقلة مع جميع العناصر، ويحترم حرية الأديان، وحقوق أصحابها أكثر مما يدعيه المستعمرون لأنفسهم من حماية حقوق الأقليات المستعمرة، فإن الإسلام يقول لمن يعيشون إلى جانب أبنائه من المواطنين: لهم مالنا وعليهم ما علينا، كما قررته القواعد الإسلامية، بينما لم تر إلى اليوم دولة من دول الاستعمار جعلت لمن تدعي حمايتهم : لهم مالها وعليهم ماعليها).

وأخيراً أقول ..

ماأشبه الليلة بالبارحة، فقد عادت مزاعم المستعمرين وترهاتهم للظهور مرة أخرى في أيامنا هذه، بل زادوا عليها مفتريات جديدة حول

العرب والإسلام والمسلمين.فما أحرانا اليوم أن ننهض لتفنيد هذه المزاعم قولا وعملاً كما فعل أجدادنا، وذلك بالتفاف الأمة حول عقيدتها ودينها، وبذلك نكون أمناء في حمل مسؤوليتها التاريخية كما حملها ذلك الرعيل الذي تحدثت عنه .

علماً بأن الغالبية العظمى ممن حضر ذلك المؤتمر قد لاقوا وجه ربهم سبحانه، ونحن نعلم من سيرتهم العطرة أنهم لم يكتفوا بالقول بل قارعوا الاستعمار بلسانهم وأسنتهم، وكانوا نعم الرواد لشعوبهم، فتقدموا الصفوف لايخافون إلا الله سبحانه، ونحن على يقين بأن أحداً لن يستطيع أن يقضي على هذه الأمة؛ لأنها الأمة التي تحمل الرسالة الخاتمة التي هي نور الله، ونور الله لايستطيع أحد مهما حاول أن يطفئه، فقد وعد الله سبحانه بنشره فقال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣١ يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٣٢ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾.(١)

كما وعد سبحانه بحفظ كتابه الذي هو نبراس هذه الأمة فقال: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.(٢)

كما بشرنا بذلك حبيبنا المصطفى عليه الصلاة والسلام فقال فيما رواه ثوبان رضي الله عنه مرفوعاً: (إن الله زوى لي الأرض، فرأيت

(١) سورة التوبة :٣٢-٣٣.
(٢) سورة الحجر:٩.

مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها مازوى منها).[1]

فهرس المراجع :

١ – إبراهيم الغلاييني: (القول الموجز المبين فيما اختصره رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمور الدين) رسالة مطبوعة بدون تاريخ.

٢ – خالد عبد الكريم بن علي تركستاني المكي: (بلوغ أماني الأبرار في التعريف بشيوخ وأسانيد مسند الديار الحلبية الشيخ أحمد بن محمد سردار الحلبي الشافعي) دار القلم العربي بحلب.

٣ – سعد الدين الغلاييني: (نبذة لسيرة المرحوم الشيخ إبراهيم الغلاييني)، رسالة بخط المؤلف لم تطبع مؤلفة من ١٥ صفحة.

٤ – سليمان سليم النواب: (موسوعة أعلام سورية في القرن العشرين) طبعة دارة المنارة بدمشق. الطبعة الأولى عام ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩/ ٢٠٠٠م.

٥ – عبد العزيز محمد سهيل الخطيب الحسني: (العلماء المعاصرون غرر الشام في تراجم آل الخطيب الحسنية ومعاصريهم)

٦ – علي الطنطاوي: (ذكريات علي الطنطاوي) دار المنارة للنشر –السعودية – السعودية – جدة – الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

٧ –اللجنة التنفيذية المركزية لمؤتمر العلماء الأول: (بيان مؤتمر العلماء

(١) هذا جزء من أول الحديث الذي رواه مسلم:٤/ ٢٢١٥.

الأول المنعقد بدمشق بتاريخ ١٣-١١/رجب /١٣٥٧هـالموافق ٦/٨/أيلول /١٩٣٨م) مطبعة الترقي بدمشق عام ١٣٥٧/١٩٣٨م.

٨ - محمد بدر الدين عابدين: (وفاة العلامة مفتي قضاء قطنا المرحوم الشيخ إبراهيم الغلاييني) كتيب طبع بعيد وفاة الشيخ إبراهيم عام ١٩٥٨م.

٩ - محمد بن عبد الله آل رشيد: (إمداد الفتاح بأسانيد ومرويات الشيخ عبد الفتاح، وهو ثبت الشيخ عبد الفتاح أبو غدة).

١٠ - محمد عبد اللطيف صالح الفرفور: (أعلام دمشق في القرن الرابع عشر الهجري) طبعة دار الملاح ودار حسان، الطبعة الأولى، عام ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧ م.

١١ - محمد العربي العزوزي الإدريسي الحسني: أمين الفتوى في الجمهورية اللبنانية ورئيس المجلس العلمي: (إتحاف ذوي العناية) مطبعة الإنصاف - بيروت، طبعة عام ١٣٧٠هـ الموافق ١٩٥٠ م.

١٢ - محمد خير الدين الزركلي: (الأعلام) طبعة دار ابن حزم -بيروت.

١٣ - محمد مطيع الحافظ ونزار أباظة: (تاريخ علماء دمشق) جزءان، طبعة دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

١٤ - أبو اليسر عابدين: (الصيام بين الشريعة والطب) مراجعة وتدقيق الشيخ محمد كريم راجح. دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمات.....	٩
المبحث الأول : البيئة السياسية والفكرية التي نشأ بها صاحب الترجمة.....	٣٠
المبحث الثاني: السيرة الذاتية.....	٣٤
المبحث الثالث: أسانيد ومرويات الشيخ في الحديث....	٤٠
المبحث الرابع: الصفات التي تحلى بها.....	٤٢
المبحث الخامس: أساليب التعليم والتوجيه والفتوى عند الشيخ.....	٦٤
المبحث السادس: نماذج من كتاباته.....	٦٩
المبحث السابع: تلاميذه.....	٨٦
المبحث الثامن: قطوف من أقوال بعض عارفيه	٩٧
المبحث التاسع: وفاته.....	١٠١
ملحق عن مؤتمر العلماء الأول المنعقد بدمشق عام ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م.....	١٠٤
فهرس المراجع.....	١١٠

ملاحظة : يرجو المؤلف ممن يجد خطأً في هذا الكتاب أو تكون عنده معلومة إضافية هامة أن يراسله على عنوانه البريدي التالي مشكوراً :

mwafak48@yahoo.com